حكمة الله سبحانه وتعالى جلت قدرته · « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » سورة يس · واذا كان ذلك شأن المولى القدير لتنظيم هذا الكون فى دقة بالغة ، فان قبسا من هذا النظام لابد أن يضىء الطريق للحياة البشرية فوق هذه الارض ، حتى تبقى الانسانية الى أن يرث الله الارض ومن عليها ·

ولقد سعى الانسان دائما منذ نشأته الى مقاومة كل ما يهدد وجوده محاولا التغلب على العقبات التى تعترض طريقه حتى لا ينتهى به الحال الى الفناء، ومن ثم كان سبيله الوحيد هو تنظيم حياته بصورة تتواءم مع حياة غيره ، ولا يتأتى هذا الا اذا وضعت لها القواعد والنظم ، على أية صورة كانت وما دامت توصل الى غايتها · وكل ما يصل اليه فى هذا الصدد انما هو نتاج لفكره أوجدته ضرورة المحافظة على بقائه· ومن سمات عصرنا الراهن كثرة النظم والقواعد والاحكام والقوانين التى تدخل الى حياة الناس وتغلغل الى درجة خطيرة حتى لاتكاد تخلو منها كل دقيقة تمر فى وجودهم ·

فالنظام — أو القانون — ان شئت تسميته أمر حتمى وضرورى لبناء البشرية واستمرارها ، وانه وان بدا فى بعض الاحيان قاصرا عن بلوغ هدفه ، فليس هذا نابعا من عدم ضرورته ، وانما عن قصور فيه ، فلم يصل بعد الى درجة من الدقة والاحكام الى تحقق ما يرجى فيه ، وما زالت البشرية فى كفاح مع كل ما يحيط بها ، واضعة نصب أعينها تنظيما يتجدد يوما بعد آخر وزمنا بعد زمن وفق مقتضيات الحال وتغير الظروف ·

فاذا انتهينا الى أن النظام أو القانون ضرورة ، وربطنا هذا بما سبق لنا قوله من أن الفكر الانسانى فى وحدة مترابطة ، وأن الآخرين يستفيدون من خبرات الاولين ، ولن يأتوا بالجديد المفيد الا اذا استوعبوا خبرات الماضى وتجاربه فى محاولة لتفادى عيوبه ، وسعيا وراء تقدمه ، لبدا واضحا ضرورة هضم ثقافات السابقين وتعرف افكارهم ومعتقداتهم لصهرها فى بوتقة الزمن والتقدم للوصول الى أسمى آيات الفكر الانسانى فى التنظيم القانونى ·

واذا انتقلنا من التعميم الى التخصيص ، وفى عبارة اخرى اذا تناولنا بوجه خاص العلوم الانسانية — والقانون بدرجة أخص — وتركنا مجال العلوم الاساسية البحته ، لوجدنا الفكر الانسانى على مر العصور أشد ترابطا واقوى تماسكا ، فالباحث فى العلوم الاساسية يدور نشاطه حول نقاط معينة توصله أولا توصله الى نتائج محدده ، لانها فى الغالب أمور محسوسة وملموسة · أما فى مجال العلوم الانسانية فالامور أشد واعمق بكثير ، ذلك لانه يقتضى الغوص فى اعماق النفس البشرية ليكشف عما بداخلها وما قد تؤثر فيه أو تتأثر به ، وهو أمر شاق وطرقه وعرة ومسالكه متعددة ، ولهذا فان العلوم الانسانية فى عصرنا الراهن وبوضعها الحديث ليست موغلة فى القدم شأن غيرها من العلوم الاساسية · وليس بغريب بعد هذا أن نرى الفارق المذهل بين التقدم العلمى والتكنولوجى اذا ما قورن بما تسير فيه العلوم الانسانية·

ولعل المرجع فى النتيجة آنفة البيان هو ما تنشده البشرية من متع فى الحياة يحققها لها التقدم العلمى التكنولوجى ، فيشد بريقه جميع الناس ساعين اليه كأمل مرموق ، اذ ييسر لهم كثيرا من أمور معاشهم ، ومن ثم يحظى بعنايتهم واهتمامهم · والامر على النقيض فى العلوم الانسانية ، ذلك انها تقتضى أن ينظر الفرد الى داخل نفسه يدرسها ويعرف خباياها ثم يربط مافيها من مشاعر وانفعالات بمحيط عالمه الخارجى ، لينشد السعادة والراحة والهدوء ، وهو أمر عسير عليه ولاسيما وان الحياة المعاصرة بمشاكلها المعقدة لاتترك له فسحة من الوقت للتفكير والتأمل ·

على أن هذا لا يؤدى أبدا الى التسليم بحظ العلوم الانسانية من التقدم العلمى ، لانه بغيرها لن يكون التقدم التكنولوجى ، فهما مترابطان ، أو هما وجهان لعملة واحدة ، فان بدا أحدهما أظهر من الآخر فان هذا لا يعنى اطلاقا أنه أكثر منه أهمية ، فاختلال مسمار صغير فى آلة كبيرة قد يعطلها عن العمل ، ولعل انتشار التقدم التكنولوجى فى أرجاء العالم ، ليس مرده نقل الفكر العلمى بذاته — فهذا لا يعلمه الا الخاصة — وانما نقل آثاره المادية الملموسة لافراد البشرية ·

ان من الامور البارزة فى ايامنا هذه هو ذلك الاتجاه القوى — والذى وضعته بعض الدول موضع التنفيذ فعلا أو فى سبيلها الى ذلك — نحو تقنين أحكام الشريعة الاسلامية · ويعنى هذا ان تصاغ الاحكام التى أوردتها الشريعة السمحاء وتتعلق بشؤون الناس فى حياتهم ومعاشهم فى ثوب حديث ، ييسر للافراد الرجوع الى تلك الاحكام وتعرف ابعادها أو المراد منها· ونقول بعض الدول فقط ، لان البعض الآخر ما خرج فى يوم عن اعمال احكام الشريعة الاسلامية على الصورة التى كانت عليها دوما ·

وليس من منازع فى ان الثقافة القانونية امر جوهرى ومطلب حيوى فى حياة كل امة ، وبغيرها لن تستقر لافرادها حياة · ولا نعنى بالثقافة القانونية فى هذا المجال لونا خاصا من انواع المعرفة ، وانما نقصد بهذا قواعد عامة تحكم علاقات الناس المختلفة وترسخ فى نفوسهم وتنطبع فى وجدانهم ، ويشعرون بأن الخروج عليها يهددهم فى امنهم واستقرارهم · وتلك الثقافة القانونية هى التى يصبغها المشرع فى احكام على صورة مواد مبسطة يسهل الرجوع اليها عند الحاجة ·

ولقد كانت — بل وفى راينا مازالت — احكام الشريعة الاسلامية هى السائدة فى التطبيق لتنظيم أحوال الناس فى مختلف الدول العربية · ولكن لما اتسعت رقعة الدول الاسلامية صعب على كثير من الناس معرفة احكام الشريعة الاسلامية ، وكان لا بد أن يكون بين أيديهم فى طريقة يسيرة وبصورة مبسطة ، ولم يكن هذا بالامر السهل لما يحتاجه من جهد وما يقتضيه من وقت · وفى تلك الآونة كانت التشريعات فى الدول الاوربية — بعد ظلام العصور الوسطى وفى اعقاب ثورات التحرر ولا سيما الثورة الفرنسية — قد اخذت فى الظهور والانتشار بشكل واسع ، وفى صورة مبسطة وميسرة وذات احكام جلية واضحة يسهل الرجوع اليها ·

وساعد على انتشار تلك الثقافة القانونية فى صورتها المستحدثة ، ما طرأ على وسائل الاتصال من تقدم ، سهّل نقل الافكار من مكان الى آخر فى زمن قصير ولا يمكن أن نغفل فى هذا الصدد ما يحدثنا به التاريخ عن امتداد ابصار الدول الاوربية الى الاستعمار ، وكانت من اقرب الدول اليها تحقيقا لاغراضها، الدول العربية وقد تم لها ما أرادت بالنسبة الى كثير من تلك الدول ·

وسعت الدول المستعمرة فى سبيل تثبيت اقدامها الى فرض ثقافتها الفكرية على البلاد التى سيطرت عليها ، بل لقد حاول البعض منها أن يجعل من تلك البلاد جزءا من أراضيها واقليما من اقاليمها ·

وكانت الظاهرة الواضحة فى الثقافة القانونية فى المنطقة العربية — بعد السيطرة الاوربية عليها — انها انقسمت الى فلسفتين واضحتين ، أولاهما الفلسفة القانونية اللاتينية التى تتزعمها فرنسا ، والاخرى الفلسفة القانونية الانجلوسكسونية وتمثلها المملكة المتحدة · فكانت الفلسفة السائدة فى الدراسات القانونية لدولة عربية متأثرة بتلك الخاصة بالدولة المسيطرة عليها ، وانه وان كانت مصر قد خرجت على هذه القاعدة ، فانما يرجع ذلك الى سبب تاريخى ، هو البعثات التى أرسلت الى فرنسا ، فضلا عن الثقافات التى حاول نابليون نقلها اليها عندما قاد حملته للاستيلاء على مصر ، ولهذا عندما فرضت انجلترا سيطرتها على مصر بالاحتلال ، لم يكن بمقدورها اقتلاع جذور الفلسفة القانونية الفرنسية بعد أن كانت قد ثبتت فى البلاد · واقتصرت فى فرض ثقافتها العلمية فى غير المجالات القانونية ·

ولم يقف الامر فى غالبية الدول العربية عند اختلاف الثقافات القانونية الى الاتجاهين المشار اليهما آنفا ، بل انعكس هذا الامر وظهر هذا الامر جليا فى كثير من المصطلحات القانونية ، التى اختلفت فى الفاظها ومدلولاتها · فمن المعلوم أن الاحكام القانونية لابد وان تكون منضبطة الالفاظ محددة المدلول حتى تصل الى نتائج واحدة فتستقر أمور الناس ولا تضطرب احوالهم نتيجة لخلاف حول تفسير بعض تلك المصطلحات ·

ومن اجل ما تقدم اصبح من المألوف للباحث القانونى أن يجد الفاظا ومصطلحات فى بعض المؤلفات هى بذاتها تعطى مفهومات ومدلولات مغايرة فى مؤلفات اخرى ، تبعا لاختلاف المرجع التى يستقى منه المؤلف ثقافته القانونية · واحتاج الامر الى جهد لاستيعاب

المصطلحات التى تؤدى مفهوم موحد وان اختلفت الفاظها ·

هذا — على ما سلفت لنا الاشارة — هو الوضع القائم فى غالبية الدول العربية ، ويقودنا هذا الى التساؤل عما اذا كان هناك ثمة حل يوصل الى اتفاق فى الفكر القانونى يؤدى لوحدة المصطلحات فى اللغة العربية · وهذا الامر ينقلنا بالضرورة الى الشريعة الاسلامية ، لان احكامها باللغة العربية التى تجتمع حولها الامة العربية ·

ان فى رأينا — كنقطة بدء — ان تعريب العلوم الانسانية ، وبوجه خاص القانونية منها يقتضى تعرف وضع الشريعة الاسلامية بالنسبة الى تلك العلوم ، ذلك لان الايمان بما ورد فيها من احكام يؤدى بالضرورة الى تطبيق تلك الاحكام ، وهذا لن يكون بطبيعة الحال الا باللغة العربية ، وقد يبدو غريبا الربط بين اعمال احكام الشريعة الاسلامية وتعريب التعليم العالى ، وعلى وجه ادق العلوم الانسانية · ولكن بالتمعن القليل تبدو اهمية الامر ولزوم تلك الدراسة ·

فلقد سبقت لنا الاشارة الى أن الثقافة القانونية السائدة فى غالبية الدول العربية تتسم باحدى الفلسفتين اللاتينية او الانجلوسكسونية ، وقلنا ايضا ان هناك حركة نشطة فى تلك الدول نحو اعمال احكام الشريعة الاسلامية فى صورة تقنينات مستحدثة · ومن طبيعة الامور أن يقوم صراع بين فكرين ، أولهما المتأثر باحدى الفلسفتين المشار اليهما والذى يتمسك بالمحافظة على ما فيهما ، والفكر الآخر هو التيار الجارف القائم حاليا فى تطبيق احكام الشريعة الاسلامية · ولا شك ان لكل من الفكرين حججه واسانيده ، فهو لا يستوحى رأيه من فراغ أو يتمسك به حبا فى المجادلة ·

ومفهوم الصراع بين الفكرين السابقين يعنى بطبيعة الامور خلافا حول اسس ثقافة قانونية بلغة اجنبية ، وثقافة اخرى هى الاسلامية والتى كتبت بلغة عربية · ويقتضى الانصاف فى الحكم معرفة أعماق وجذور كل من الثقافتين حتى تكون المقارنة والتفضيل بينهما على اساس علمى واقعى · ومن هنا كانت اهمية التعريب للثقافة القانونية الاجنبية ·

ورب قائل يذهب به الفكر الى التساؤل عن الداعى للتعريب وللباعث عليه ، فما دام الاتجاه السائد فى الدول العربية هو تقنين الشريعة الاسلامية ، فلتطبق احكامها ولا حاجة بنا الى تعرف ما هو قائم فى الثقافات الاخرى ؟ وهو تساؤل لا يحتاج الى طول فى المناقشة أو افاضة فى الحجج ، بل أن التعريب فى ذاته ضرورة لازمة لتطبيق احكام الشريعة الاسلامية ·

ان الاتجاه السائد لتقنين الشريعة الاسلامية واعمال احكامها ليس مبعثه تعصب لفكر دينى أو عقيدة دينية ، فهذا ابعد الامور عن ذلك النشاط · ولكن سهام النقد والمقاومة لهذا التيار — لسبب او لآخر — هاجمت فكرة اعمال احكام الشريعة الاسلامية وكان محور من يقاوم اتجاه التقنين هو القول بأن احكامها وضعت فى وقت معين لتناسب حياة الاقوام المعاصرة له ، وهى بهذا لا تصلح للتطبيق فى العصر الراهن ، فاين ما فيها من نظريات بالمقارنة مع الافكار والآراء المستحدثة والمتجددة يوما بعد يوم · وقد يبدو هذا القول ذو بريق لاسيما وان سنة الحياة هى التطور والتقدم ، ولكن هل حقيقة أن الشريعة الاسلامية جامدة الاحكام مناسبة للعصور السالفة دون العصر الحديث ؟ ان الحكم فى هذا هو الذى يبرز حتمية المقارنة بين الثقافة الاسلامية العربية وغيرها من الثقافات ، حتى لا ترمى حركات تقنين احكام الشريعة الاسلامية بالتعصب الدينى · وتلك المقارنة — على ما سبق القول — هى التى تستلزم التعريب ·

ويقتضى الحال — قبل ان ننتقل الى تعريف الفلسفة القانونية غير العربية — الى ان نتناول فى ايجاز وضع الشريعة الاسلامية فى صدد ما ورد بها من احكام، ذلك لان هدف التعريب فى نظرنا ليس قاصرا على تعرف الفكر القانونى غير العربى فقط ، وانما غايته أمرين هامين ، أولهما بيان ان احكام الشريعة الاسلامية صالحة للتطبيق فى العصر الحديث ، والامر الآخر أن الفكر القانونى غير العربى لم يكن متطورا مع الايام وحده فى الوقت الذى وقفت فيه الشريعة الاسلامية عن التطور ·

ان الشريعة الاسلامية تفترق عن غيرها من الشرائع السماوية من ناحيتين ، الاولى أنها تعد آخر الرسالات السماوية ورسولها عليه الصلاة والسلام آخر الرسل وخاتم النبيين ، فليس من بعدها رسالة · وقد اقتضى هذا وجود الفارق الآخر الذى يميزها عن غيرها من الرسائل ، حيث شملت ، فضلا عن العبادات — شأن غيرها من الرسائل السماوية — الاحكام التى تنظم

شؤون الدنيا وحياة الناس ومعاملاتهم .

وليس المجال هنا تناول العبادات فأساسها فضلاعن الايمان بالله ورسله التمسك بالفضائل ونبذ الرذائل ، وفى هذا تتفق الشريعة الاسلامية مع غيرها من الشرائع السماوية ، وان اختلفت فى بعض التفاصيل بسبب فروق الزمان والمكان وسنة التطور فى البشرية والصفة الخاصة للشريعة الاسلامية ، وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق .

واما الاحكام فهى بيت القصيد . فالشريعة الاسلامية كما اشرنا هى آخر الشرائع السماوية وتناولت تنظيم أحوال البشر فى حياتهم ومعاشهم ، وكان من المحتم أن تكون الاحكام التى وردت بها صالحة لتحقيق هدفها ما دامت الحياة على ظهر هذه البسيطة ، ولهذا كان أمرا منطقيا بل وحتميا أن يقال أن الشريعة الاسلامية صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان .

واذا اردنا أن نتحقق فى هذا الامر قليلا لاستوجب الحال أن نسترجع فى ذهننا مصادر احكام الشريعة الاسلامية . ولاخلاف حول أن أول تلك المصادر هو كتاب الله المنزل ، هو القرآن الكريم ، وثانى تلك المصادر هو السنة الصحيحة . ثم يأتى من بعدها الاجماع والقياس ، ويضاف الى هذا مصادر اخرى اختلف الراى حولها . ويعنينا فيما نحن بصدده المصدر الاول ، الا وهو القرآن الكريم .

ان من ينظر فى القرآن الكريم وما ورد به من آيات الاحكام يستلفت نظره انها وضعت قواعد كلية حتى وان جاءت مناسبتها فى صدد حادثة معينة او تساؤل خاص . وتلك القواعد الكلية تتضمن علة الحكم وحكمته. ومن ثم فانه على اساسها وفى ضوء الغاية منها يمكن اعمال الحكم على كل فرض جزئى يثور البحث حول معرفة الراى فيه .

وورود الاحكام بالقرآن الكريم فى قواعد كلية دون صور جزئية هو ما جعل الرسالة المحمدية آخر الرسالات . فلا ينكر احد سنة التطور فى الحياة، ومنها تتطور معاملات الناس واحوالهم . وتبعا تثور فى حياتهم صور من التعامل ما كانت لتخطر ببال الاولين ، ولابد من معرفة حكمها حتى تسير امور معاشهم . فلو ان القرآن الكريم تناول احكام الفروض الجزئية ، لانتهينا بعد فترة من الوقت الى أن من بين تلك الفروض مالا محل لاعماله فى العصر الراهن . وان من الفروض مالا يتناول حكمه ، وما هذه بصفة آخر الرسالات . ومن اجل هذا كانت القواعد الكلية ، التى فى واقعها تواجه كل تطور للحياة البشرية، ولن يخلو القرآن الكريم من حكم عام يمكن أن ينطوى تحته كل فرض من المسائل التى تعرض فى الحياة . وهذا مصداقا لقوله تعالى « وما فرطنا فى الكتاب من شىء » .

واذا انتقلنا الى باقى مصادر أحكام الشريعة الاسلامية الاخرى غير القرآن الكريم لا ستلفت النظر انها كانت فى صورة حلول وردود لمشاكل الناس وما يعرض لهم من أحداث يريدون تعرف حكم الشريعة الاسلامية منها . ومن طبيعة الامور أن تكون تلك المسائل متوائمة مع وقتها وعصرها ومكانها ، لاسيما اذا ما قارناها بالعصر الراهن ، فما كان يثور من مشاكل فى مجتمع قبلى محدود العدد لا يطابق ابدا ما يوجد فى مجتمع متطور له كثافة سكانية ضخمة ؛ على أن هذا لايعنى اطلاقا اختلاف الحلول فى العصور الاولى للاسلام عنها فى العصر الراهن ، ذلك لانها تستند الى أحكام كلية واحدة منبثقة عن مصدر اصيل هو القرآن الكريم .

ومن يطالع المؤلفات والكتب التى وضعت فى عصر ازدهار الفقه الاسلامى يجدها تسير على النمط الذى اشرنا اليه ، فهى لاتعرض القواعد الكلية ثم تعمل أحكامها على الجزئيات التى تعرض لها ، وانما تنطلق فى اجابات على الوقائع القائمة والفروض المحتملة لمسألة من المسائل التى تتعلق بأحوال الناس سواء فى معاملاتهم أو عباداتهم . وكانت تلك سمة المؤلفات فى ذلك العصر ؛ ولم يكن هذا بالامر المستغرب فالمتتبع لسير العلماء المسلمين يجد أن الواحد منهم يدرس كل ما يتعلق بما يبغى التفقه فيه ، فيقرأ لفلان. ويتعلم على يد فلان ، وبهذا يجمع شتات العلم المختلفة. فاذا ما اشتهر امره وذاع صيته . واصبح له تلاميذ ومريدون ؛ سعى الناس اليه يستفتونه فى احوالهم وما يعن لهم من مشاكل ، فيجيب عن هذا ويرد على ذلك ، ومن حوله تلاميذ واتباع يسجلون كل ما يقول ويثبتون كل ما يفتى به . فاذا تجمع له قدر من تلك الآراء جمعها فى مؤلف واحد ؛ بل قد يكون من قام بجمعها واحد من تلاميذه . ويأتى دور هؤلاء من بعده يزيدون ويعلقون . فترة على المتن شروح وشروح ، وكلها تدور فى نفس الفلك الاصلى ، اى تعرف حكم

الشريعة الاسلامية فى حكم الجزئيات والوقائع التى تعرض للناس · وان الرجوع الى تلك المؤلفات او المصنفات يجد فى تقديمها اشارة الى ذلك ومصداقا لما نقول ·

ومما ينبغى التنبيه اليه أن لا تعنى الطبيعة الخاصة لتلك الكتب انتفاء الاحكام العامة التى تستند اليها ، بل ان العكس هو الصحيح · فالفقيه فى الشريعة الاسلامية — على ما سلفت لنا الاشارة — ما كان يتعرض للفتوى الا اذا الم بأحكام الشريعة الاسلامية فدرس القرآن والسنة النبوية ولكل من سبقه · فهو بهذا تسيطر على ذهنه قواعد كلية وأحكام عامة يستهدى بها فى حل ما قد يعرض عليه من مسائل · وهذا أمر لا يحتمل جدلا ، وآية هذا أن المتتبع لتلك الاحكام الجزئية يجد بينها انسجاما واتفاقا مما يؤكد انبثاقها من منبع واحد · فلو لم تكن هناك احكام كلية تسيطر على فكر الفقيه لتضاربت آراؤه ، ولاضطربت فتاواه ، لا سيما اذا أخذنا فى الاعتبار ضخامة المؤلفات التى خلفوها من بعدهم ·

وهذه الطبيعة الخاصة للثروة العلمية التى تركها فقهاء الشريعة الاسلامية تتفق مع طبيعة ذلك العصر ، لاسباب عدة · فالامية التى تسود المجتمعات العربية كانت تدفع بالافراد الى الفقهاء يستفتونهم فى شؤون حياتهم وهؤلاء يجيبون عليهم ، فلم يكن بمقدورهم الرجوع بأنفسهم الى كتب يطلعون على ما بين صفحاتها من أحكام · ولم تكن هناك وسيلة فى تلك الآونة لنشر المؤلفات حتى تطرح للتداول بين الناس ليسهل الرجوع اليها ، كما هو الحال فى العصر الراهن، أما المدارس التى تعنى بالشريعة الاسلامية فكانت متركزة فى أولئك العلماء ومن يحيط بهم من تلاميذهم ، وهؤلاء قلة لايوفرون بعددهم النشر للكافة · وطبيعة تلك المؤلفات كانت امتدادا فى الصدر الاول فى الاسلام، حيث اعتاد الناس الرجوع الى الرسول عليه الصلاة والسلام يستفتونه فى أمورهم ، ومن بعده من ولى أمر المسلمين ، وكان التنسيق فى كتب الفقه الاسلامى كان منحصرا فى تجمع حلول معينة تحت باب واحد ، ولذا نرى فى تلك الكتب عناوين عديدة ، كباب الصلاة ، وباب الزكاة ، وباب الجنايات ، وباب الجهاد .. الخ · ومن الملاحظ ان امهات الكتب فى الشريعة الاسلامية فى غالبيتها من المخطوطات ، وما يزال الكثير منها فى بعض الدول العربية ، فهى لم تطبع لتنتشر على نطاق واسع الا فى عهود متأخرة عن كتابتها · ونجد مصداقا لهذا فى كثير من الكتب التى تصدر فى السنوات الاخيرة محققة لتلك المخطوطات ·

ولقد وقفت حركة الاجتهاد فى الشريعة الاسلامية نتيجة لأسباب خاصة فى أحد عصور الحكم الاسلامى على ما هو معروف فى التاريخ ، واصبح الفقهاء من بعد مقلدين ومرددين لقول السابقين · بل لقد وجدنا من الدول ما يقف عند مذهب معين من مذاهب الفكر الاسلامى لايخرج عليه ولا يقبل غيره ، بل زاد الامر خطورة ان وقف الرأى عند ما قال به السابقون · بل لا نكون مجافيين الحقيقة ان قلنا ان مؤلفات العصر الراهن فى الشريعة الاسلامية تسير على نفس النمط الذى سارت عليه كتب السابقين ، فيما عدا بعض التغييرات الطفيفة ، التى لم تمس الجوهر · وترى ان الاطلاع على أى كتاب من كتب الشريعة الاسلامية للمؤلفين المحدثين يجهد القارىء فى متابعته كالشأن بالنسبة الى مؤلفات من سبقوها من العلماء والفقهاء ·

ويعرض لنا تساؤلان هامان ، أولهما هو هل وقفت احكام الشريعة الاسلامية عن مسايرة أحكام التطور فى حياة الناس وعلاقاتهم حتى يصح القول بأنها غير صالحة للتطبيق فى عصرنا الراهن ، ومن ثم نبحث عن ثقافات وافكار جديدة تحكم تلك العلاقات · والسؤال الآخر ، هل هناك رابطة — على أية صورة كانت — بين الثقافة الاسلامية والاخرى الغربية ، وان وجدت تلك الرابطة ما هو مصدرها وايها اولى بالاعمال والتطبيق ·

لقد عرضنا فيما سبق للصورة التى وضعت بها مصنفات الشريعة الاسلامية ، والظروف الاجتماعية التى فرضت تلك الصورة ، واكدنا أن الحلول الجزئية فى تلك المؤلفات تنبثق عن قواعد عامة حصلها الفقيه من دراسات على مدى سنوات طوال حتى حق له أن يتولى أمر الفتوى · وحتى نجيب على السؤال الاول الخاص بصلاحية تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية فى عصرنا الراهن ينبغى بذل جهد جديد يوصل الى تلك الغاية ، والاخذ فى الاعتبار بطبيعة أحكام الشريعة الاسلامية ·

فأما عن الامر الأول وهو الخاص بالجهد الذى يبذل فى صدد التراث العلمى الاسلامى والخاص بالاحكام ، فهو يتطلب أمرين ، أولهما استخراج الاحكام الكلية وردها الى أصولها فى القرآن الكريم وفى السنة الثابتة ، والامر الآخر هو وضعها فى الثوب الحديث للمؤلفات العلمية .

فاذا كانت المؤلفات فى الشريعة الاسلامية فى عصر نهضتها العلمية تدور حلول لمسائل جزئية تعرض للناس، فان الحال يقتضى عملية استقراء لتلك المسائل والوصول عن طريقها الى القاعدة الكلية التى أوصلت الى تلك الحلول . وهذه القواعد الكلية يمكن أن يطلق على كل منها مصطلح نظرية ما . فالنظرية ماهى الا فكر مجرد يتناول مسألة معينة ويؤدى فى جزئياته الى حلول متناسقة ومتوائمة لا تضارب بينها ، والا افتقدت صفتها كنظرية عامة ، أو كقاعدة عامة أو قاعدة كلية .

وتأتى بعد هذه المرحلة الاخرى فى صدد مصنفات الشريعة الاسلامية ، وهى وان بدت شكلية الا انها فى غاية الاهمية ، اذ عن طريقها يمكن توصيل الفكر الاسلامى الى أذهان الكافة . ويتأتى تحقيق تلك المرحلة فى الباس تلك المؤلفات ثوبا عصريا ، وبوجه خاص من ناحية التبويب والتنسيق الذى ييسر للقارىء الوصول الى الحل الذى يبغيه المؤلف . فنحن فى عصر اتسم بالسرعة وازدحمت فيه شؤون الحياة وتصارعت مصالح الافراد ، واصبحت مشكلة الكثيرين — وهم الذين يسعهم الاطلاع على المؤلفات المختلفة — الوصول الى الوقت الكافى لعمق الاطلاع وطول الاناة فى البحث. وهؤلاء ان خيروا بين كتابين احدهما كتب بالطريقة التقليدية لمصنفات الشريعة الاسلامية والآخر وضع بثوب حديث فى تقسيماته وتفريعاته ، لاختاروا الاخير، حيث يوفر لهم من الوقت ما هم بحاجة اليه فى شأن آخر من شؤونهم ، وهذا ما يفسر لنا ظاهرة افتقار كثير من المؤلفات القانونية الى دراسة مقارنة مع الشريعة الاسلامية ، وليس مرد هذا هو العزوف عن البحث فى أحكامها وانما هو صعوبة مسالك مؤلفاتها اذا ما قورنت بغيرها . وانا لنجد ندرة من كتب الشريعة الاسلامية المحققة هى التى خرجت الى الناس فى ثوب حديث .

وأما وقد وصلنا الى هذا فأنا نستطيع القول بأن كنوز الفكر الاسلامى فى مجال العلوم الانسانية سوف تضىء السبيل أمام الباحثين ، وسوف يتجلى بأوضح صورة أن القواعد الكلية التى تسيطر على الشريعة الاسلامية هى الاصلح دائما لرعاية أحوال الناس فى أمور دنياهم . ومع تلك القواعد الكلية تكون الجزئيات التى قد تختلف من مكان الى مكان أو من زمان الى زمان ، ولكنها دائما مرجعها الى أصل عام واحد . ولقد سبق لنا القول بأن القرآن الكريم قد أورد الاحكام الكلية ، تاركا الجزئيات للناس يضعونها الموضع الذى يتفق ومصالحهم . الم تر أن الحدود فى الشريعة الاسلامية معدودة ، وأن باب التعزيز مفتوح على مصراعيه ليدخل منه الحاكم الى كل ما يراه فى صالح الناس عامة .

واذا كان ذلك هو الفكر الاسلامى وصلاحيته للتطبيق فى العصر الحديث ، فان التساؤل يأتى عما اذا كانت هناك ثم علاقة بين الفكر الاسلامى ، والفكر فى الدول المتقدمة — وقبل الاجابة على هذا — تنبغى الاشارة الى أن الفكر الاسلامى قد وصل الى قمة ازدهاره فى الوقت الذى كانت فيه أوربا ما زالت تغط فى ظلام العصور الوسطى ، وتلك حقيقة تاريخية . ولقد امتد الفكر الاسلامى — فى مختلف صنوف المعرفة — عبر مصر وشمال افريقيا حتى وصل الى الاندلس . ولكن هل وقف عند هذا الحد ؟ حقيقة ان العرب لم يجتازوا الاندلس الى فرنسا بجيوشهم ، ولكن الامر المؤكد أنهم تخطوا تلك الحدود بأفكارهم ، فلم تكن سيطرة الحكومات على الدولة الاسلامية سيطرة عسكرية والا انتهى أمرها منذ أمد بعيد ، بسبب الرقعة من الارض الواقعة تحت حكمها ، ولكن السبب الحقيقى فى سيطرة النفوذ الاسلامى على تلك البلاد يكمن فى الثقافة الاسلامية التى أنارت عقول الناس وتقبلوها بصدر رحب ، مع تضمين كلمة الثقافة أوسع نطاقها.

واذا كان انتقال الجيوش والسلطان من مكان الى آخر تحده اعتبارات وظروف مختلفة قد تقيد من حركته ، فالحال على العكس من هذا بالنسبة الى الفكر ، حيث لاتربطه قيود ولا تمنعه ضوابط ، ومهما وضع عليه من ضغط محاولا منه الظهور ، فلابد أن يجد له متنفسا فى صورة أو أخرى تعيد اليه الحياة من جديد . وعلى هذا لم تقف العوائق الطبيعية فى يوم

من الايام عائقا من نقل الافكار والفلسفات من مكان الى آخر ·

واخذا مما تقدم هل يقبل القول بأن الحدود بين الاندلس التى كان يسيطر عليها المسلمون وبين فرنسا مفتاح اوربا فى ذلك الوقت منعت من نقل الفكر الاسلامى والفلسفات الاسلامية الى اوربا · ان الواقع والتاريخ يرفضه هذا الزعم ، ولن نكون مجافين للحقيقة، اذا قلنا ان كثيرا من النظريات التى تبناها الفكر القانونى الفرنسى والتى انتقلت الى كثير من الدول العربية كفلسفة قانونية لاتينية ترد فى اصلها ومنبتها لثقافة من الشريعة الاسلامية ·

وفى راينا أن من تلقى ثقافته القانونية فى فرنسا وكتب يوما مؤلفا فى القانون فانه قد جاء متاثرا بالفكر اللاتينى ، وهو يجعل مراجعه فيما يكتب امهات الكتب الفرنسية · ويقف جهد الباحث عند هذا الحد ، الا يعتمد على فكر حديث فى الوقت الذى وقف فيه الاجتهاد فى الشريعة الاسلامية · وكان هذا هو دور الرواد الاول فى الفكر القانونى العربى ، يستوى فى هذا من تلقى ثقافته فى البلاد التى تعتنق الفلسفة اللاتينية او تلك التى تاخذ بالفلسفة الانجلوسكسونية · ولو بذل اولئك المؤلفين جهدا اكبر وساعدتهم ظروفهم وردوا الفلسفات الغربية — لا سيما اللاتينية منها — الى اصول لها لوجدوا الكثير منها قد استمد من الفقه الاسلامى ·

وعود على بدء ، فلقد سبق لنا القول بأن الفكر الانسانى وحدة مترابطة ، وحلقات متكاملة فى سلسلة واحدة ، وان لكل تطور فيه ملبع مهما تغير المكان او اختلفت الازمان · وفى راينا ان الفكر الاوربى والثقافة الغربية لها جذورها فى الشريعة الاسلامية ، ولن يتحقق هذا بأمرين الاول منهما نقل الفكر الاوربى — وبوجه خاص امهات الكتب فى الثقافة القانونية — الى اللغة العربية ، فلم يعد ميسرا لابناء الجيل الراهن الرجوع الى الكتب الاجنبية بسبب المستوى الذى وصلوا اليه فى الالمام بهذه اللغات ، فما من سبيل الى نقلها اليهم الا باللغة الميسرة لهم وهى اللغة العربية · وليس الامر بواقف عند هذا الحد ، بل ان النقل فضلا عما يؤدى اليه من اثراء فى المعرفة باللغة العربية ، يجمع ابناء الامة العربية جميعا حول لغتهم وتبعا تتوحد ثقافتهم وتبرز قوتها فى النطاق العالمى · والامر الآخر ان تتوحد المصطلحات التى تستخدم فى الفكر القانونى ، فمن الملاحظ اختلافها وما تؤدى اليه من مدلول ، ولا شك فى ان توحيد تلك المصطلحات يوصل الى تناسق وتجانس فى الفكر ، وتبعا الى وحدة الاصالة الفكرية المستمدة من التراث الاسلامى والعربى ·

ونقل الفكر القانونى غير العربى الى اللغة العربية سوف يشجع على الدراسة والمقارنة ثم التأصيل بين مختلف النظم القانونية ، ولسنا مبالغين لو قلنا ان نقل تلك الدراسة سوف تؤدى الى اثبات سمو الفكر الاسلامى والعربى ويشجع هذا الى عملية عكسية ، هى نقل تلك الدراسات المقارنة الى اللغات الاجنبية ، ويعود من جديد الدور الثقافى الذى ينبغى ان تقوم به الشريعة الاسلامية فى تطوير الفكر الانسانى· ولعل ما يؤيد هذا القول ما يلاحظ من اقبال المفكرين من الغرب على دراسة الانظمة التى تطبقها الدول العربية والمتأصلة فى الشريعة الاسلامية ، وكذلك اتجاه كثير من الجامعات الاجنبية الى تخصيص اقسام لدراسة الشريعة الاسلامية لمعرفة القوة التى بها والتى يلتف حولها ملايين البشر ·

وخلاصة القول ان نقل الفكر الانسانى فى مجال العلوم القانونية الى اللغة العربية هو من اكبر العوامل التى تبرز سمو احكام الشريعة الاسلامية واصالتها، وانها كانت وما زالت منبع الفكر لكثير من الانظمة الحديثة · وتلك خدمة للامة العربية والاسلامية، آن الوقت أن يسهم فيها كل من تيسر له ذلك مهما قل النصيب او ضعف الجهد ، فالتضافر والتعاون موصل الى الغاية باذن الله وهو الموفق ·

نظرة في معاجمنا اللغوية

الأستاذ: عيسى فتوح

لو رحنا نحصى أسماء معاجمنا اللغوية التى ألفت على مدى عشرة قرون ، منذ أن صنف الخليل بن أحمد الفراهيدى أول معجم له وهو «كتاب العين» حتى اليوم لبلغت العشرات . . . طبع بعضها ، وما يزال بعضها الآخر مخطوطا . من هذه المعاجم المطبوعة الميتة — اما لقلة استعمالها ، واما لانها توقفت عند عصر معين — يمكننا أن نعد : «الجمهرة» «لابن دريد» ، «التهذيب» «لابى منصور الهروى» ، «المحكم» لابن «سيده الاندلسى» «المجمل» و «مقاييس اللغة» «لابن فارس» ، «أساس البلاغة» «للزمخشرى» ، «النهاية فى غريب الحديث» «لابن الاثير » ، «المصطلح المنير» «للفيومى» ، «تاج اللغة وصحاح العربية» «للجوهرى» ، «لسان العرب» «لابن منظور» ، « القاموس المحيط » « الفيروزابادى » الذى شرحه المرتضى الزبيدى فى القرن الثانى عشر الهجرى وزوده بالشواهد الكثيرة فى معجمه «تاج العروس» .

هذه المعاجم على كثرتها ، غير كافية لانها بعيدة جدا عن مقتضيات العصر ، وما تتطلبه وسائل البحث الحديثة من سهولة ووضوح وقرب مأخذ ، وانطلاقا من هذا المبدأ فقد عمد الاستاذان يوسف خياط ، ونديم مرعشلى فى بيروت الى تغيير طريقة الكشف فى لسان العرب ، بأن الغيا باب الحرف الاخير وفصل الحرف الاول للاصل الثلاثى للكلمة ، واكتفيا بباب الحرف الاول ثم طبعاه فى ثلاثة أجزاء فقط ، فوفرا بذلك العمل الكثير من الوقت والجهد على المراجع .

علة هذه المعاجم جميعا هى تحجرها وجمودها ، ذلك أنها تعنى باثبات الالفاظ القديمة حتى ولو كانت غريبة وميتة ، وتحاول توضيحها والاستشهاد عليها بالقرآن والحديث والشعر الذى يحتج به ، وتهمل كثيرا من الالفاظ والاستعمالات الجديدة التى وردت على السنة الشعراء والكتاب المتأخرين ، فالاحتجاج يقف عند هؤلاء المؤلفين عند نهاية العصر الاموى فقط ، ولا يمتد الى العصر العباسى ، بحجة أن اللغة فشا فيها الكثير من اللحن والخطأ على السنة العامة من الناس، لاختلاط العرب بالاعاجم من فرس وروم واتراك وغيرهم.

الواقع ان هؤلاء العلماء كانوا شديدى التزمت ، متحفظين اكثر من اللازم ، الامر الذى دفع المستشرق الهولندى « دوزى » الى تأليف معجم ضخم سماه « ملحق المعاجم العربية » نشره فى ليدن ، فى مطلع هذا القرن .

لقد بين دوزى أن واضعى المعاجم العربية كانوا راغبين عن استعمال اى كلمة لا تمت بصلة الى لغة القرن الهجرى الثانى وما قبله ، واقفين فيه عند الزمن

الذى بدا فيه العرب يحتلون مكانتهم فى ركب الحضارة العالمية ، ويتقبلون كثيرا من الالفاظ الجديدة التى ترجع باصولها الى اللغات الأجنبية ، كى يعبروا عن الاشياء والافكار الجديدة ·

ان اهمال معاجمنا القديمة الكثيرة من الالفاظ والاستعمالات الحديثة فى ازهى عصور الحضارة العربية — كالعصرين العباسى والاندلسى — اصاب اللغة فى الصميم وجعلها تفقد جانبا كبيرا من مرونتها وطواعيتها ، وتتخلف عن مواكبة الحياة ، وتبقيها هياكل محنطة لا يجرؤ اى كاتب او شاعر ان يخرج عن الحدود الضيقة التى رسمتها هذه المعاجم ·

ولكى لا يختلط كلام العرب الدخيل بالكلام الفصيح فى معجم واحد ، عمد الجواليقى فى القرن السادس الهجرى الى تأليف كتاب خاص اسماه «المعرب» جمع فيه الالفاظ التى لم تدخل المعاجم ، لانها جاءت بعد القرن الهجرى الثانى ، وكذلك فعل الشهاب الخفاجى فى كتابه « شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل »·

لاشك فى ان المعاجم العربية القديمة غنية المادة ، تدل على اطلاع واسع ، ومجهود كبير فى الجمع والتصنيف ، ولها قيمة تاريخية لاتنكر ، وستظل خير مورد لنا فى معرفة اصول الكلمات ، ومعانيها الغريبة، وعباراتها الغامضة ، الا انها كثيرا ما تخطىء فى ضبط الكلمات ، وتكثر من ايراد المترادفات والاستشهادات من القرآن والحديث والشعر الجاهلى والاسلامى ، ولا تقبل الا ما اخذ عن البادية ، وتقف فى الاحتجاج عند القرن الهجرى الثانى ، مهملة جميع العصور التى تعاقبت بعد ذلك ، فلم تمثل بذلك العصر الذى جمعت فيه ، وكأن اللغة تجمدت عند هذا القرن ، ولم تتطور او تستفيد من لغات الأمم والشعوب التى امتزجت فيها، وصارت جزءا لا يتجزأ من الأمة العربية ·

لقد اغفلت هذه المعاجم قانون التطور الذى يقضى بأن تساير اللغة العصر ، وتتابع سير الحياة والمجتمع الذى عاشت فيه ، بالاضافة الى ما ورد فيها من حشو وتكرار واجترار ، يأخذ اللاحق عن السابق ، حتى أن ابن منظور صاحب اكبر معجم عربى وهو «لسان العرب» يعترف بأنه لم يفعل شيئا اكثر من انه جمع « تهذيب » الازهرى ، و «وصحاح» الجوهرى ، و «محكم» ابن سيده ، و «نهاية» ابن الأثير ! ·

المعاجم الحديثة :

استمرت الحال كذلك حتى القرن الثامن عشر ، حينما تنبه المطران جرمانوس فرحات الحلبى (1670 — 1732) الى ظاهرة توقف المعاجم عند تاريخ معين ، ولاحظ هذه الفجوة الكبيرة بينها وبين لغة ما يكتب وينشر، فهى فى واد واللغة فى واد آخر ، فالف معجمه « احكام باب الاعراب » الذى اعتمد فيه على القاموس المحيط ، والمصادر التى نقل عنها ، فأخذ منها ما اهمله القاموس من الفاظ ، واضافها اليه من جديد ، فجاءت مكملة له ، ملتحمة بمادته كل الالتحام ·

ثم تلاه احمد فارس الشدياق (1804 — 1888) الذى الف معجمه « الجاسوس على القاموس » فى نقد القاموس المحيط فجاء فى حوالى سبع مئة صفحة ، وكانت غايته منه الوصول بالمؤلفين الى ايجاد معجم عربى حديث يستوعب اكبر عدد من الالفاظ الدقيقة المستعملة فى اقل عدد من الصفحات ·

لم يكتف الشدياق بهذا القاموس ، بل الف معجما جديدا اعتمد فيه على مخارج الحروف وعلى القلب والابدال اسماه «سر الليال فى القلب والابدال» جمع فيه المفردات المتداولة والمترادفات ، وما استدركه على الفيروزابادى من الالفاظ والمعانى ·

لقد كانت غاية الشدياق من معجمه ابراز فضل اللغة العربية وايضاح مزاياها ، والسعى الى اثبات حقيقة مرونتها ، وانها غير قاصرة عن استيعاب العلوم والمصطلحات العصرية ·

ثم سار على منواله فى حركة الاحياء اللغوى عالمان لبنانيان آخران هما بطرس البستانى (1819 — 1883) صاحب « محيط المحيط » الذى رتب مواده ترتيبا هجائيا سهلا ، واقتصد فى الشواهد والنصوص ؛ وسعيد الشرتونى (1849 — 1912) صاحب « اقرب الموارد فى فصيح العربية والشوارد » الذى لقى رواجا اكثر بسبب احكام ترتيبه ، واختصار شواهده·

وما ان اطل القرن العشرون حتى ظهرت العناية

الخاصة بالمعاجم ، ولا سيما الصغيرة الحجم مثل «مختار الصحاح» « للرازى » و « المصباح المنير » « للفيومى »، لكنهما يظلان ناقصين عن استيعاب الالفاظ والكلمات الحديثة المستعملة التى يحتاجها الكاتب، وتقتضيها طبيعة العصر ، الى ان ظهر معجم «المنجد» للاب لويس معلوف اليسوعى فى طبعته الاولى عام 1908 وهو معجم صغير سهل الاستعمال ، تتالت طبعاته بسرعة هائلة حتى الآن اثنتين وعشرين طبعة ، ثم اضيف اليه فى الطبعات الاخيرة قسم جديد للآداب والعلوم وفهرس للاعلام ، وقد سار فى طريقته على منهج معجم «لاروس الصغير» وخاصة فى قرب مأخذه ووسائل ايضاحه ، ولوحاته وصوره ورسومه .

كذلك اخرجت مطابع لبنان معجمين حديثين آخرين هما «الرائد» لجبران مسعود الذى رتبت مواده حسب لفظ الكلمة دونما حاجة للرجوع الى اصلها الثلاثى ، وخلال المراجعة يبين ذلك الاصل ويضبط عين المضارع، اما المعجم الآخر فهو «المنجد الابجدى» الذى صدر عن دار المشرق ويتبع الطريقة نفسها ، وفى المعجمين جهد واضح ورغبة ظاهرة فى تيسير المراجعة والبحث، لكنهما اغفلا كثيرا من المصادر والجموع ، وشتتا المادة اللغوية فى اماكن متعددة .

المعجم الوسيط :

اللغة كل متصل الاجزاء ، لا يمكن ان نفصل حاضره عن ماضيه ، والعربية ــ ككل لغات العالم ــ لها ماضيها الخالد، وحاضرها الحى، ومستقبلها المشرق فكيف نقف بها عند القرن الثانى أو القرن الرابع الهجرى؟ اذا توقفنا بها عند زمن معين ــ كما فعل علماء اللغة والنحو ومؤلفو المعاجم القديمة ــ قضينا عليها بالموت تضاء مبرما ، ولذلك يجب علينا اليوم أن نؤلف معاجم يتصل فيها حاضر اللغة بماضيها ، ويحفظ فيها ما جمد واهمل لقلة الاستعمال ــ كما تحفظ المومياء فى المتاحف ــ الى جانب الالفاظ الحية ، والكلمات المستعملة . اللغة كائن حى يجب أن تتجدد خلاياه باستمرار لئلا يندثر ويموت ،ومن هذا المنطلق نهض مجمع اللغة العربية فى القاهرة عام 1946 لتأليف معجم كبير وآخر وسيط مستعينا بالمستشرق الالمانى الدكتور «فيشر» الذى عنى بالمعاجم العربية ، ورغب أن ينهج فيها نهجا جديدا ، لكن الرجل توفى عام 1949 دون أن يحقق العمل المرجو ، وان كان قد سار فيه شوطا طويلا ، فأكمل المجمع ما بدأ به فيشر، ونشر عام 1956 جزءا منه فى حوالى خمس مئة صفحة، ضم الفاظا حديثة الى جانب الالفاظ التى كانت سائدة فى الجاهلية وصدر الاسلام ، وأخذ بنصيب وافر من المصطلحات العلمية والتاريخية والجغرافية واسماء الاعلام ، والتزم بمبدأ تقديم الافعال على الاسماء والمجرد على المزيد ، واللازم على المتعدى ، والحسى على المعنوى ، والحقيقى على المجازى .

الا ان المعجم الوسيط الذى صدر بعده بجزئين كبيرين وفى حوالى الف ومئة صفحة لسد حاجة الطلاب والمدارس ، كان أكثر استعمالا ، واوفى بحاجة الراغبين فى البحث السريع والدقيق ، فقد جاء محكم الترتيب، واضح الاسلوب ، سهل المأخذ ، مزودا بالصور ، بالاضافة الى احتوائه طائفة كبيرة من مصطلحات العلوم والفنون واسماء الاعلام البارزين ، والاماكن ، على نمط معجم «لاروس» الفرنسى . والاهم من ذلك كله انه ضم جميع مفردات اللغة قديمها وحديثها ، وأخذ بما استقر من الفاظ الحياة والناس .

كما انه رتب الكلمات حسب نطقها ، لا حسب تصريفها ، اذ لا يستطيع التلميذ الحديث السن أن يرد الكلمة الى اصلها الثلاثى ، لينطلق فى معرفة باقى معانيها ــ ومثل ذلك فعل جبران مسعود فى الرائد ، ومؤلفو المنجد الابجدى ــ ، وسهل الشرح ، وكتب بلغة العصر وروحه ، واكتفى بالضرورى من الشواهد لئلا يضيع المراجع فى متاهاتها وتشعباتها ، وطور اللغة ، فقاس السماعى ، وقبل الكثير من الالفاظ المولدة والمحدثة أو المعربة ، او الدخيلة ، وفتح المجال للعديد من الفاظ الحياة العامة ، والالفاظ التى ادخلتها الحضارة ، ويكفيه شهرة انه جدد اللغة ، وجعلها عصرية ، وهدم الحدود الزمانية والمكانية التى اقيمت خطأ بين عصور اللغة المختلفة .

ما احوجنا اليوم الى معاجم عصرية ، تتجدد طبعاتها كل عام ، فتضم اليها كل ما دخل اللغة من الفاظ حديثة وتتبناها ، لان لغتنا كغيرها من اللغات لا يمكن أن تعيش معزولة عن سائر اللغات العالمية ، تأخذ منها وتعطيها ، تستفيد منها وتفيدها ، ولا معنى لادعاء البعض أن اللغة العربية قاصرة عن استيعاب مصطلحات

العلوم والفنون والتكنولوجيا الحديثة ، وانها لغة لا تقبل التجديد والتطور ·

يمكن أن تسير لغتنا الجديدة جنبا الى جنب مع لغتنا القديمة ، فيستعمل الكاتب ما يشاء من الالفاظ والتعابير ، ولا بأس ان يلجأ الى القياس والنحت والاشتقاق ، عندما تقتضيه الضرورة ، وأن يبتكر الفاظا جديدة وعبارات لم تكن من قبل ، فاللغة تحيا على السنة الناس ، واقلام الكتاب ، وليس فى المعاجم التى تحفظها وتصونها فقط ·

المصـــادر :

1 ــ نظرة تاريخية فى حركة التاليف عند العرب (فى اللغة والادب والتاريـــخ والجغرافيـــا) الجزء الاول ــ الدكتور أمجد الطرابلسى ــ مطبعة الجامعة السورية 1955

2 ــ حـــركة الاحياء اللغـــوى فى بـــلاد الشام ــ الدكتـــورة نشاة ظبيـــان ــ مطبعـــة سميراميس دمشق ــ 1976

3 ــ فى اللغة والادب ــ الدكتور ابراهيم بيومى مدكور ــ اقرا ــ 337 ــ يناير 1971

الكلمات غير الفصاح في معجم الصحاح

الاستاذ: سميح ابو مغلي

معجم « تاج اللغة وصحاح العربية » المعروف بمعجم الصحاح من المعاجم العتيقة العريقة ، الفه صاحبه الشيخ ابو نصر اسماعيل بن حماد الجوهرى المتوفى سنة 398 هجرية على طريقة القافية ، اى ان المفردات فى هذا المعجم مرتبة بحسب حروفها الاواخر، فاذا اتحدت الاواخر كان التمييز بينها بحسب الاوائل، ومفاد هذا انك تجد كلمة (علم) مثلا فى (باب الميم) وهو آخر حرف من الكلمة ، وفصل (العين) أول حرف، كما تجد كلمة (أسعف) مثلا فى (باب الفاء فصل السين) لان الهمزة فيها زائدة على الاصل ، وهكذا .

ولقد كان معروفا بين اللغويين والمثقفين ان الجوهرى هو امام تلك المدرسة عن اصحاب المعاجم التى اعتمدت نظام القافية فى ترتيب المفردات ، الى ان اثبت الدكتور احمد مختار عمر ، من خلال دراسته لمعجم ديوان الادب للفارابى المتوفى سنة 350 هـ ، ان فضل السبق فى ذلك يعود للفارابى . على انه بات من المؤكد الآن ان أول (1) من ابتدع هذا النظام فى ترتيب المعاجم هو ابو بشر اليمان بن ابى اليمان المتوفى سنة 284 هـ ، وسار على طريقته كل من الفارابى والجوهرى . ثم تبع نظام القافية بعد ذلك كل من ابن منظور فى لسان العرب ، والفيروزابادى فى القاموس المحيط والصغانى فى العباب والزبيدى فى تاج العروس والشيرازى فى المعيار .

ويقول الجوهرى فى مقدمة صحاحه : قد اودعت هذا الكتاب ما صح عندى من هذه اللغة التى شرف الله تعالى منزلتها ، وجعل علم الدين والدنيا منوطا بمعرفتها بعد تحصيلها رواية ، واتقانها دراية ، ومشافهتى بها العرب العاربة والمستعربة فى ديارهم بالبادية ، ولم آل فى ذلك نصحا ، ولا ادخرت وسعا . .

وجاء فى كلمة الاهداء التى كتبها معالى السيد حسن شربتلى لطبعة دار الكتاب العربى بمصر — وقد طبعت على نفقة معاليه بتحقيق احمد عبد الغفور عطار سنة 1376 هـ 1956 م — ان الصحاح اول معجم عربى صحيح جمع من الفاظ كلام الله عز وجل وحديث رسوله الصادق الامين ما به الحاجة اليه وجمع من كلام العرب ما صح ونقى ، ونفى عن صحاحه ما لم يطمئن الى صحته ونقائه . .

اذن فسبب تسميته بالصحاح او صحاح اللغة انه ضم الكلم الصحاح والمفردات الفصاح من لغة الضاد . بل لقد توخى الجوهرى مزيدا من التوسل الى الصحة اذ استعمل الضبط بالحروف لما وجد من طرود التصحيف على نطق الكلمات فى المعاجم السابقة عليه ، مثل الجمهرة وتهذيب اللغة (2) .

ولقد لاحظ الدكتور عبد الله درويش لدى الجوهرى عدة هفوات ، كما اغفل كثيرا من الكلمات الصحيحة .

---

(1) انظر : (فى علم اللغة العام) للدكتور عبد الصبور شاهين ص 215 و (الازهرى فى تهذيب اللغة) ص 114 .

(2) فى علم اللغة العام ص 216 .

وان المتتبع لحاشية ابن برى او تكملة الصاغانى يرى كيف انهما استدركا على الجوهرى كثيرا من الصحيح الذى تركه مما ذكره الخليل بن احمد الفراهيدى فى معجمه (العين) ، وقد عقد السيوطى فى (المزهر) بابا سماه (ذكر ما اخذ على صاحب الصحاح من التصحيف) .

ويقف معجم الصحاح ، بمجلداته السبعة ، فى خزانة كتبى بمكان ينم عن بالغ حبى له ، وعظيم تقديرى لصاحبه ، واننى اذ اقلب صفحاته مداعبا احيانا ، ودارسا او باحثا احيانا اخرى يلفت انتباهى وجود كلمات اعجمية معربة فيه ، فيحفزنى ذلك للتعرف على هذه الكلمات الغريبة القابعة بين ظهراني الكلمات الصحاح ، فاقوم باحصائها فالفى مائتين وسبع كلمات نصّ الجوهرى نفسه على انها غير عربية الاصل .

وها انذا اصنفها مرتبة حسب مصادرها مرة ، ومجالات استعمالها مرة اخرى ، مع ملاحظات عليها ، وتوثيق لها لدى معاجم اخرى .

الالفاظ المعربة فى صحاح الجوهرى

1 — الالفاظ المعربة عن الفارسية (3) وهى : (مع ذكر الجزء والصفحة من معجم الصحاح ازاء كل منها) :

الابريق 4 — 1449 ، الآجر 2 — 576 ، الاستبرق 4 — 1450 ، الاسفنط 3 — 1131 ، الاوان او الايوان 5 — 2076 ، الباريا والبوريا 2 — 598 ، البالة 4 — 1642 ، البالغاء 4 — 1317 ، البردج 1 — 299 ، البرق 4 — 1450 ، بسطام 5 — 1872 ، البند 1 — 447 ، البهطه 3 — 1117 ، البوس 2 — 907 ، بيرم 5 — 1870 ، ترهات 6 — 2229 ، ترياق 4 — 453 ، جاموس 2 — 912 ، جداد 1 — 450 ، جربان 1 — 99 ، جردبان 1 — 99 ، الجرم 5 — 1885 ، الجل 4 — 1658 ، جلاهق 4 — 1454 ، جلسان 2 — 911 ، جهنم 5 — 1892 ، الجوز 2 — 268 ، الحب (بمعنى الخابية) 1 — 105 ، الخلنج 1 — 312 ، الخورنق 45 — 1468 ،

---

(3) وعند الرجوع الى المعجم الفارسى الانجليزى :
Persian English Dictionary, by F. Steingass, University of Munich.
للتاكد من ان هذه الكلمات من اصل فارسى بالفعل تبين ان صاحب هذا المعجم الدكتور ف . ستانغس يَرُدّ 13 من هذه الالفاظ الى الاصل العربى هى : البوس ، ترهات ، جهنم ، الحب ، الخلنج ، الدرهم ، الدورق ، الطاق ، الطسق ، العراق ، الفهيج ، الموق ، الهملاج . (راجع المعجم الفارسى المذكور فى الصفحات على التوالى 206 ، 298 ، 382 ، 410 ، 472 ، 508 ، 548 ، 806 ، 815 ، 841 ، 945 ، 1346 ، 1511) مع ان اصحاب المعاجم العربية ينفون عن هذه الالفاظ سمة العروبة . كما ان الدكتور ستانغس يغفل فى معجمه ذكر 11 من هذه الالفاظ مما يدل على انها ليست فارسية الاصل ايضا ، وهى : اسفنط ، البالغاء ، بسطام ، بيرم ، جلسان ، الزئبق ، الزنفليجة ، سفاسق ، شفارج ، الشوذر ، الوَجّ .
ويقرر كذلك ان خمسة الفاظ مما رسمه الجوهرى بالفارسية هى مشتركة بين العربية والفارسية ، اى انه لم يستطع التاكيد على انها عربية الاصل او فارسيته ، وهى : البرق ، ترياق ، دهليز ، طنبور ، قندان (راجع المعجم الفارسى صفحة 176 ، 298 ، 549 ، 820 ، 981 على التوالى) .
كما يقول ان الكلمتين التاليتين هما من اصل يونانى :
— المنجنيق والياقوت (انظر صفحة 1324 ، 1527) — وارى ان (المسك) تنحدر من اصل هندى لا فارسى ، على نقيض ما يقرره الجوهرى وستانغس (ص 1247) كلاهما وكذلك ابن منظور فى لسان العرب (انظر ج 10 ص 487 والجواليقى فى المعرب ص 373 وقد استعملنا اللفظة فى الجاهلية قال الاعشى ببابل لم تعصر فجاءت سلافة تخالط تنديدا ومسكا مختما
ودليلى فى ان (مسك) هندية الاصل ان العرب الاوائل والمستعربين ظلوا الى وقت متأخر يرون ذلك قال ابو الضلع السندى احد شعراء الموالى فى معرض مدحه للهند :
فمنها المسك والكافور والعنبر والندل
واصناف من الطيب ليستعمل من يتفل
(انظر الحيوان للجاحظ 7 — 50) .
وانظر ايضا « تحقيق بعض الالفاظ الهندية المعربة » — مجلة كلية آداب القاهرة عدد 13 ص 62 .

الدخـــدار 2 ــ 655 ، الدرابنة 5 ــ 2112 ، الدرز 2 ــ 875 ، الدرهم 5 ــ 1918 ، الدشت 1 ــ 249 ، الدكان 5 ــ 2114 ، الدلق 4 ــ 1476 ، الدمق 4 ــ 1477 ، الدهليز 2 ــ 875 ، الدورق 4 ــ 1470 ، الدولاب 1 ــ 125 ، الديابوذ 2 ــ 564 ، الديباج 1 ــ 312 ، الديسق 4 ــ 1474 ، الرزداق (والرستاق) 4 ــ 1481 ، الرمق 4 ــ 1484 ، الزاج 1 ــ 321 ، الزئبق 4 ــ 1488 ، الزرجون 5 ــ 2130 ، الزرنين 5 ــ 2131 ، الزرنامقة 4 ــ 1490 ، الزماورد 1 ــ 547 ، الزنفيلجة 1 ــ 320 ، الزيج 1 ــ 321 ، السبع 1 ــ 321 ، السرق 4 ــ 1496 ، سفاسق 4 ــ 1497 ، السكر 2 ــ 688 ، السمرج 1 ــ 322 ، الشاروف 4 ــ 1381 ، الشهارج 1 ــ 324 ، الشوذر 2 ــ 695 ، الصاروج 1 ــ 325 ، الصرد 1 ــ 493 ، الصـــرم 5 ــ 1965 ، الصك 4 ــ 1596 ، الصولجان 1 ــ 325 ، الطابق 4 ــ 1513 ، الطارمة 5 ــ 1973 ، الطاق 4 ــ 1519 ، الطراز 2 ــ 880 ، الطسق 4 ــ 1517 ، الطنبور 2 ــ 726 ، الطيلسان 2 ــ 941 ، العراق 4 ــ 1523 ، الفرانق 4 ــ 1543 ، الفرزدق 4 ــ 1543 ، الفرسخ 1 ــ 428 ، الفنزج 1 ــ 336 ، الفيج 1 ــ 336 ، الفيهج 1 ــ 336 ، القبج 1 ــ 337 ، القربق 4 ــ 1548 ، القندان 1 ــ 524 ، القنشليل 5 ــ 1803 ، قوش 3 ــ 1017 ، القيران 6 ــ 2462 ، الكرباس 2 ــ 967 ، الكرج 1 ــ 337 ، الكرد 1 ــ 528 ، كسرى 2 ــ 806 ، الكعك 4 ــ 1605 ، اللجام 5 ــ 2027 ، المالج 1 ــ 342 ، المئزاب 1 ــ 232 ، المح 1 ــ 340 ، المزازبة 1 ــ 135 ، المساتق 4 ــ 1494 ، المسك 4 ــ 1608 ، المقمجر 2 ــ 799 ، المنجنيق 4 ــ 1454 ، المهرق 4 ــ 1569 ، المهندس 2 ــ 929 ، الموزج 1 ــ 341 ، الموق 4 ــ 1557 ، النشا 6 ــ 2510 ، الهريذ 2 ــ 573 ، الهملاج 1 ــ 351 ، الهنداز 2 ــ 899 ، الوج 1 ــ 347 ، الياقوت 1 ــ 271 ، اليرندج والارندج 1 ــ 318 ، اليلمـــق 4 ــ 1571 .

2 ــ الفاظ معربة عن الرومية :

الاقانيم 5 ــ 2016 ، البطريق 4 ــ 1450 ، حزيران 2 ــ 629 ، السجنجل 5 ــ 726 ، شباط 3 ــ 1130 ، الصمج 1 ــ 325 ، القمقمة 5 ــ 2015 ، كانون 6 ــ 2189 ، ملطية 3 ــ 1162 ، هرقل 5 ــ 1849 .

3 ــ الفاظ من لغات اخرى :

البطاقة 4 ــ 1450 ، (بلغة اهل مصر) ، البهار 2 ــ 599 (قبطية) الحندقوق 4 ــ 1456 ، (قبطية) الزمانقة 4 ــ 1490 (عبرانية او فارسية) ، السبابجة 1 ــ 320 (قوم من السند) السقرقع 3 ــ 1230 (حبشية) ، قارون 6 ــ 2182 (عبرانية) .

4 ــ الفاظ لم يذكر مصدرها (4) :

---

(4) وقد بحثت عن هذه الالفاظ فى المعجم الفارسى الانجليزى المشار اليه ووجدت ان الدكتور ستانغس يرد 21 كلمة منها الى العربية وهى آزر ، أسحق ، اسرافيل ، بخت ، بن بنك ، توتياء ، جبت ، حران ، داود ، راقود ، زمرد ، سراويل ، صعفوق ، صنجة ، صنم ، صهريج ، طسوج ، طيجن وطاجن ، عزير ، قـــوانيـــن .
ولا يعنى عزوه هذه الكلمات الى العربية انها عربية فعلا ، فلقد انكرها علماء العربية وقالوا انها غير عربية الاصل ، بل ان بعضها يخالف النسج العربى مثل صنجة وصهريج وطاجن وطيجن اذ لا يجمع فى اللغـــة العربية صاد وجيم او طاء وجيم فى كلمة واحدة .
ولكن الغريب ان المعاجم القديمة كلسان العـــرب والمحيط لم تذكر اصل هذه الكلمات واكتفت بقولها انها معربة او غير عربية باستثناء (سراويل) اذ جاء فى اللسان ج 11 ص 334 وفى المحيط ج 3 ص 406 انها فارسيـــة .
والاغرب من ذلك ان بعض المحدثين غزوا (توتياء) الى الالمانية (انظر : غرائب اللغة العربية للاب رفائيل نخلة اليسوعى ص 218) . ولست اخـــال احدا يظن ان هذه اللفظة التى استعملها العرب قبل القرن الرابع الهجرى وذكرها الجوهرى فى معجمه فى ذلك القرن جاءت من الالمانية او ان الالمانية التقت مع العربية فى تلك الايام .
وقد ذكر الاب انستاس مارى الكرملى فى كتابه نشوء اللغة العربية ــ ص 211 ــ ان اسرافيل عبرية . ويرد ستانغس فى معجمه الفارسى الانجليـــزى الكلمتين اصطبل وافريز الى اليونانية (ص 68 ، 82 على التوالى) وفى غرائب اللغة العربية ص 277 اصطبل لاتينية .

ابراهيم 5 1871 ، ابريسم 5 — 1871 ، اجاص 3 — 1029 ، آزر 2 — 578 ، اسحق 4 — 1495 ، اسرافيل 4 — 1373 ، اصطبل 4 — 1623 ، افريز 2 — 883 ، اهليلج 1 — 351 ، الباطية 6 — 2281 ، البخت 1 — 243 ، بغداد وبقدان 2 — 561 ، بقم 5 — 1873 ، البن 5 — 2081 ، البنك 4 — 1576، انبوصى 3 — 1031 البيازرة 2 — 589 ، التوتياء 1 — 245 ، الجبت 1 — 245 ، جريز او قريز 2 — 864، 888 ، الجردقة 4 — 1454 ، الجرموق 4 — 1454 ، الجص 3 — 1032 ، جلق 4 — 1454 ، جلنبلق 4 — 1454 ، الجوالق 4 — 1454 ، الجورب 1 — 99 ، الجوسق 4 — 1454 ، الجوتة 4 — 1454، الجوهر 2 — 619 ، حران 2 — 627 ، الخوان 5 — 2110 ، داود 1 — 468 ، الدهقان 5 — 2116، الراقود 1 — 473 ، الزمرد 2 — 565 ، الزنديق 4 — 1489 ، السراويل 5 — 1729 ، السرجين او السرقين 5 — 2135 ·

السترقع 3 — 1230 ، الشبارق 4 — 1500 ، الشبور 2 — 693 ، صعفوق 4 — 1507 ، الصنج 1 — 325 ، صنجة الميزان 1 — 326 ، الصنم 5 — 1969 ، الصهريج 1 — 326 ، طبرزد او طبرزل او طبرزن 2 — 266 ، الطسوج 1 — 327 ، الطحين والطاجن 6 — 2157 ، عزير 2 — 744 ، قابوس 2 — 957، القبان 6 — 2179 ، القريق 4 — 548 ، القز 2 — 888 ، القفال 5 — 1803 ، القوانين 6 — 2185، الكامخ 1 — 430 ، الكزبرة 2 — 805 ، الكوس 2 — 969 ، الكيلجة 1 — 337 ، المارسنان 2 — 975، مارسرجس 2 — 820 ، الماش 3 — 1020 المردقوش 3 — 1019 ، الناسور 2 — 837 ، النرجس 2 — 931 الهاون 6 — 2218 ، الهلهل 5 — 1852 ، هميان 6 — 2536 ، اليارق 4 — 1571 ، يعقوب 1 — 186 ·

واذا نظرنا فى المجالات التى استعملت فيها هذه الالفاظ المعربة المذكورة فى معجم الصحاح للجوهرى فان بمقدورنا أن نصنفها حسب المجالات التالية :

1 — اسماء اعلام مثل : ابراهيم ، آزر ، اسحق، اسرافيل ، بابل ، بسطام ، داود ، صعفوق ، عزيز ، فرزدق ، قابوس ، قارون ، كسرى ، هرقل ، يعقوب ·

2 — القاب واقوام : البطريق ، البيازرة ، الجرامقة ، الدرابنة ، الصهابجة ، المزاربة ، الهربذ ،

3 — مدن واماكن : بغداد ، حران ، جلق ، الخورنق ، العراق ، القريق ، مارستان ، مارسرجس، ملطية ·

4 — ملابس : الابريم ، الاستبرق ، الجداد ، جرموق ، جورب ، دخدار ، درز ، ديابوز ، ديباج ، زرمانقة ، سبيحة ، سراويل ، سرق ، شوذر ، طراز، طيلسان ، القز ، الكرباسى ، المساتق ، الموق ·

5 — اوانى واوعية : الابريق ، الباطية ، البالة ، الجوالق ، الحب ، الدورق ، الدولاب ، الديسق ، الراقود ، الصهريج ، الفيهج ، الكيلجية ·

6 — ادوات ولوازم : الآجر ، بطاقة ، بهار ، بيرم النجار ، توتياء ، الجص ، الخوان ، دبوس ، زرنين ، الزيج ، السنجنجل ، الشاروف ، الشهور ، الصاروج ، الصولجان ، الصنج ، صنجة الميزان ، الطابق ، الطنبور ، الطيجن او الطاجن ، القبان ، القندان ، القفسليل ، الكوس ، اللجام ، المالج ، المنجنيق ، الهاون ، هميان الدراهم ·

كما يقول ستانغس ان الكلمتين : سقرقع وناسور مشتركتان فى الاصل بين العربية والفارسية اى انه لا يؤكد اكان اصلهما عربيا أم فارسيا ، مع ان صاحب لسان العرب يقول ج 8 ص 159 ان سقرقع حبشية الاصل ، ويؤكد ذلك صاحب المحيط ج 3 ص 40 غير ان الاب رفائيل اليسوعى يوافق على ان ناسور فارسية (انظر غرائب اللغة العربية ص 246) ·

ولا يؤكد ستانغس الاصل الفارسى الا بالنسبة لسبع وثلاثين كلمة من هذه القائمة وهى (مع صفحات المعجم الفارسى بازاء كل منها) : ابريسم 8 ، بخت 158 ، بغداد 192 ، بقم 194 ، البوصى 206 ، البيازرة 144 ، جربزا وقريز 1078 ، جرموق 361 ، 678 ، الجص 364 ، الجوالق 376 ، الجورب 1101 ، الجوسق 378 ، الجوتة 377 ، الجوهر 379 ، الخوان 481 ، الدهقان 547 ، الزنديق 676 ، السرجين او السرقين 676 ، الشبور 783 ، الصنج 798 ، طبرزن او طبرزل 279 ، 808 ، قابوس 946 ، قبان 951 ، قريق 1021 ، 1042 ، القز 968، الكامخ 1009، كزبرة 1029، الكوس 1061 ، الكيلجة 1070 ، المارستان 1139 ، الماش 1141 ، المردقوش 1212 ، نرجس 1395 ، هاون 1486 ، هلهل (وهو السم) 1506 ، هميان 1512 ، اليارق 1525 ·

7 ــ جواهر وحلى : الجوهر ، الزمرد ، الياقوت.

8 ــ ادوية : اهليلج ، ترياق ، هلهل ، الوج .

9 ــ حيوانات : البخت (من الابل) ، اليسرق (الحمل) ، الجاموس ، الدلق (دويبة) ، الرمق (قطيع الغنم) ، القبج (الحجل) ، الهملاج (من البراذين) .

10 ــ شهور ومواقيت : حزيران ، شباط ، كانون .

11 ــ نباتات وزهور وفواكه : اجاص ، الجل (الورد) ، الجلسان ، الجوز ، الحندقوق ، الخلنج ، الكزبرة ، الماش ، المج ، نرجس .

12 ــ اطعمة : النهطة (ارز وماء) الجردقة (الرغيف) ، الكامخ (الذى يؤتدم به) ، الكمك .

13 ــ اشربة : الاسفنط ، البن ، الزرجون ، السفرقع .

14 ــ كلمات عامة : اقانيم ، البوس ، ترهات ، جلنبلق (صوت طرق الباب) ، جهنم ، جوقة ، درهم ، دكان ، صنم ، توانين ، قيروان (قافلة) ، مهندس ، الخ

وبعد ، فان الالفاظ المعربة فى معجم الصحاح لا تساوى بالنسبة للثروة اللفظية الفصيحة فى العربية نقطة فى بحر ، وهى لا تعدو فى معظمها اسماء لمسميات حسية كالاطعمة والاشربة والالبسة والادوات واسماء الاشخاص والاماكن ، ومع ذلك فكثير من هذه الالفاظ لم تعد مستعملة فى هذه الايام ، الامر الذى يمكن معه اعتبار كثير من المعربات حلت ضيوفا على لغة الضاد ثم استأنست ، وهذا الامر يجعلنى ادعو الى عدم التخوف من التعريب ، ذلك لان اللفظة التى نعربها لحاجة اليها فى وقت من الاوقات ، او لمجرد وصولها الينا عبر وسائل المواصلات الحديثة بعد ان تكون اطلقت على مخترع او مستحدث وشاعت فى بلدها ، هذه اللفظة تحل فى كرم ضيافتنا وتتقبلها سماحة لغتنا ثم لا تلبث ان تعود من حيث اتت حينما يلغى المخترع الذى وسم بها ، او يحل محله مخترع اكثر حداثة منه، او تنزوى اللفظة بين اسطر المعجم لا يخرجها منه الا باحث او عالم ، وتبقى العربية هى العربية ، وتبقى لغة الضاد خالدة باصواتها وصرفها ونحوها وثروتها اللفظية ودلالاتها .

المصـــادر والمـــراجـــع :

1 ــ معجم الصحاح للجوهرى اسماعيل بن حماد
مطابع دار الكتاب العربى بتحقيق عبد الغفور عطار 1377 هـ ·

2 ــ لسان العرب لابن منظور جمال الدين ابى الفضل محمد بن مكـــرم ·
دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر 1374 هـ 1955 م ·

3 ــ القاموس المحيط للفيروزابادى مجد الدين ابى طاهر محمد بن يعقوب ·
طبعـــة بولاق 1272 هـ ·

4 ــ معجم ديوان الادب للفارابى ابى ابراهيم اسحق بن ابراهيم ·
تحقيق الدكتور أحمد مختار عمـــر ــ مجمع اللغة العربية بالقاهرة 1974 م ·

5 ــ المعجم الفارسى الانجليزى (طبعة مصورة ــ مكتبة لبنان ــ بيروت 1970 م) ·
Persian English Dictionary by: F. Steingass,
University of Munich.

6 ــ المعرّب من الكلام الاعجمى للجواليقى ابى منصور موهوب بن احمد ·
تقديم وتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام ــ مطبعة دار الكتب 1969 ·

7 ــ غرائب اللغة العربية للاب رفائيل نخلة اليسوعى ·
المطبعة الكاثوليكية ــ ط 2 بيروت

8 ــ نشوء اللغة العربية للاب انستاس مارى الكـــرملـــى ·
المطبعة المصرية بالفجالة 1938 ·

9 ــ المزهر فى علوم اللغة وانواعها للسيوطى جلال الدين ابى الفضل عبد الرحمن
شرح وضبط محمد أحمد جاد المولى وزملائه ــ ط 4 ·
دار احياء الكتب العربية بالقاهرة 1958 ·

10 ــ فى علم اللغة العام للدكتور عبد الصبور شاهين ·
مكتبة دار العلوم ــ شارع المبتديان ــ القاهرة 1974 ·

11 ــ الحيوان للجاحظ ابى عثمان عمرو بن بحر بن محجوب ، تحقيق عبد السلام هارون ·
مطبعـــة الحلبـــى 1357 هـ ·

12 ــ مجلة كلية الآداب (القاهرة) ج 1 عدد 13 لعام 1951 ص 62 (تحقيق بعض الكلمات الهندية المعربة للدكتور محمد يوسف) ·

13 ــ رسالة دكتوراه (الازهرى فى كتابه تهذيب اللغة) لرشيد العبيدى بمكتبة جامعة القاهرة ·

تعريب كلمات متداولة وكلمة عربية واحدة لفولكلور

الأستاذ : محمد شيت صالح الحياوي

الحديث عن التعريف جديد دوما لا يمل ولا يصدأ ، ليس له موسم خاص ولا وقت محدد لاننا كنا ولانزال وسنبقى فى حاجة اليه لانه من اهم القضايا اللغوية ان لم يكن اهمها فلنضعه نصب عيوننا ولنشتغل فيه بحثا ودراسة ومعالجة حتى تلحق العربية بل تبذ غيرها من اللغات لا فى الميدان الادبى فحسب بل فى الميدان العلمى وغيره من الميادين الحيوية والحضارية ، لان لها من الامكانات والقابليات والمرونات والذخائر والاتساع والغنى والعمق والشمول ما يؤهلها لان تتبوا الصدارة وما يشجع العاملين والمختصين للسير بها والارتفاع بمستواها حتى نهاية المطاف ويلوغ الهدف سيرا لايتوقف مواكبا سنة التطور وسلم التكامل وتقدم الحضارة .

من اجل ذلك فذذت السير — قدر الامكان — للمساهمة فى هذا الميدان ، وهاانذا اكتب بعض ما مر علي أو خطر ببالى من كلمات اجنبية او منحرفة اراها كثيرة التداول فى صحفنا واذاعاتنا وغيرهما من وسائل النشر والاعلام مجتهدا ان اضع بدلها كلمات عربية مضبوطة تقوم مقامها علها تحظى بالرضا والقبول من ارباب العلاقة واللغة والاختصاص وذلك كما ياتى :

اسفلت : — زفت — ومنه تزفيت الشارع ولاادرى اى الكلمتين هو الاصل فكلتاهما مستعملتان بمعنى القار او القير .

ماكنة : — وزنها عربى (فاعلة) متداولة تجمع على ماكنات لا مكائن كما هو شائع .

تلفزيون : — بوزن آذريون (زهر اصفر) وقد سماها البعض تلفازا واخذ منه تلفز تلفزة . ولا ادرى لماذا تذكرت — مرناة — بكسر الميم — وهى من الفعل رنا يرنو الذى يشترك فى معناه السمع والبصر والجمال وغيرها من الصفات الاخرى التى تتعلق بهذه الآلة ؟ فهل نطلقها على التلفزيون ايضا بعامة ام على الملون منه بخاصة ؟ !

فلورسنت : — فلرس او فلرست مثل فهرس وفهرست بحذف احرف الزيادة ومنها فلرس داره ،،، الخ

تلفون — هاتف : — يستبدل بالثانية مهتفة بكسر الميم لان الهاتف وزن ومعنى الفاعل فى حين نعنى الآلة، فالاصح مهتفة بوزن قياسى اخترناه من ثلاثة .

بريفى بد : مقصرات — بضم فسكون فكسر ، للحيوانات قصيرة الارجل ، ففى المعجم اقصرت المراة ولدت قصارًا .

جينوسايد (1) : ــ المحق الكلى ، الابادة العامة ، التقتيل ، والاخيرة كلمة واحدة تجمع على تقاتيل اذا اردنا مضاعفة كثرة القتل ·

أرشيف : ــ مَسْجَل ــ بفتح فسكون ففتح جمعه مساجل ومنها أَرْشَفَة مَسْجَلَة تكتيك : وسائلية :

ستراتيجية : ــ خِططية ، بكسر الخاء

ميليشيا : ــ حذفت احرف الزيادة وكانها عربية ورجعت الى مادة ــ ملش ــ فى المعجم فاذا هى : ملش الشىء ملشا فتشه بيده كانه يطلب فيه شيئا !

افلا نستطيع تخريج هذا المعنى لحمله على الانسجام مع معنى ميليشيا ثم نقول مَلشيَّة مَلشيَّات بالياء المضعفة ؟ فان لم يقبل هذا التعريب فعندنا الرديفية او المتسلحة ·

ايديولوجية : ــ كان فى الامكان ترجمتها بكلمة فكرة ــ مذهب ــ لو لم يكن معنى فكرة عاما ونحن نريده خاصا فما السبيل ؟ لو رجعنا الى المعاجم لوجدنا فكرة ووجدنا فِكرى ــ بالالف المقصورة ــ ايضا · معناهما وجمعهما واحد فِكر بكسر ففتح والاولى متداولة والثانية مهملة ، فما بالنا لا نفرزهما وجمعهما فنجعل فكرة فكر للعام وفِكرى فكريات للخاص ــ المذهب ــ باحياء لفظة متروكة سداً للحاجة ؟ !

لوبى : ــ معناها رواق ، ردهة أو دهليز · وقد استعملت مجازا لتدل على الوصوليين ذوى النفوذ · افلا يجوز ان نستعمل مقابلها لفظا عربيا مشابها هو ــ لوب ــ لنخرّج معناه حتى يطابق المعنى الاجنبى او يلتقى معه ؟ · وهكذا نكون قد وضعنا اصطلاحا مترجما ومعربا فى آن واحد كما فعلنا فى ميليشيا·

سكرتير : ــ شاعت هذه الكلمة كثيرا فى حين عندنا ما يقابلها ويعوض عنها كلمتا مؤتمن وناموس فقد استعملتا ثم تركتا ربما لثقلهما لفظا ؛ فان لم تفيا بالغرض فهناك تعبير كاتم السر ــ الذى استعمل هو الآخر ثم تُرك ربما لانه مكون من كلمتين · اقول ليس بضرورة التمسك بالكلمة الثانية بل يجوز ان يؤثر على المقصود من المعنى · لان الكتمان يختص عادة بالاسرار

وعلى ذلك نقول : كاتم الجمعية وكاتمية الجمعية بدلا من سكرتارية · وعلى ذكر الكاتم فلنسم المدرس كاتم الصوت مِكتاما ــ بكسر الميم !

رجل دين او عالم دينى : ــ رَبَّانى ــ بفتح الاول وتضعيف الثانى والجمع رَبَّانيون · فالكلمة اسهل من الكلمتين لفظا وادق منهما معنى وان كان هذا لا يحول دون استعمال التعبيرين السالفين فلكل موقعه·

طيَّارة ، طائرة : ــ كلمة مشتركة تسبب الالتباس هى وجمعها فتارة تطلق على الآلة وتارة على قائدتها فما العمل ؟ هل نخصص ــ الطيارات ــ للآلات كما نخصص ــ الطوائر ــ للنساء ؟ فالاقتراح هذا حتى ان قبل فلن يحل غير مشكلة الجمع وتبقى مشكلة المفردة · فحلا للمشكلة من جانبيها لم اجد اولى من وضع كلمة ــ طَيْرية ــ بياء النسب لمن تقود الطائرة وجمعها طيريات وبذلك ننجو من الالتباس ·

الطبقة العاملة : ــ الطبقة العمالية ــ ففى النسب الى الجمع هنا معنى خاص يتميز بالوضوح والدقة ·

ارباب العمل : معمليون ــ وصاحب المعمل معملي·

معمل نسيج ــ منسج ــ بفتح الميم جمعه مناسج ·

محطة تعبئة البنزين ، بانزين خانة : ــ مَنْفطة بفتح الميم جمعها منافط ومنفطات ·

كوزنيش : ــ مَشْطَأ ــ بفتح فسكون جمعه مَشاطِىء ، وهو يختلف عن الشاطىء لان الاول اسم مكان مصنوع اى شارع محدد مبلط ومنظم يحاذى النهر او البحر اى هو جزء من الشاطىء الطبيعى لاكله·

واخيرا بقيت كلمتان متداولتان رغبت ان لا ينتهى البحث دونهما اعنى ــ المؤسسة ــ و ــ المنشأة ــ بضم الميمين وفتح السين والشين · فباعتبارهما مصطلحين جديدين تكون التسمية مقبولة لا غبار عليها ولكن اذا نظرنا اليهما من حيث المعنى فان المبانى الرسمية وغيرها فى الحقيقة مما يشملها التاسيس او الانشاء لانه تعبير عام فحبذا لو استبدلناهما ــ بالمرجعية ــ و ــ المصدرية ــ وذلك بان نجعل الاولى للدائرة او المصلحة التى يؤمها المراجعون كثيرا كما نجعل الثانية للتى لا يتردد عليها المواطنون اولا ياتونها الا لماما ·

---

1) الكلمات المارة وجدناها مجردة غير معربة الا الاخيرتين حيث خالفنا فيهما هنا كاتبها الاستاذ محيى الدين اسماعيل فى صحيفة الثورة البغدادية العدد 2944 فى 2 ــ 3 ــ 1978 ·

فى العدد السابع من السنة الثامنة ـ 1977 ـ نشرت مجلتنا العامرة ـ التراث الشعبى ـ مقالا للاستاذ الفاضل عبد الحق فاضل بعنوان ـ تعريب اسم الفولكلور ـ دعت فى تقديمه المتمكنين الى ابداء آرائهم بخصوص كلمة فولكلور ·

فنزولا عند رغبتها واسهاما فى خدمتها سألقى دلوى فى الدلاء واشترك مع الباحثين ـ متعاونين عسانا أن نحظى بما هو مطلوب ومأمول ·

فالمقال يضم فيما يضم أربعة تعابير كل واحد منها يقابل معنى فولك لور الاوربية وهى : التراث الشعبى ، ثقافة العوام ، الخلقيات ، والفلقيات ، فلندرسها لنرى أيها الاقرب والاصلح الى معنى فولك لور وهل فيها تعبير كامل مطابق للمعنى مطابقة تامة او زائدة للدلالة على ما يحتويه ذلك العلم الشامل والموسوعة العظيمة من ابحاث ودراسات طويلة عريضة فى موضوع المأثورات الموروثة من المعارف الزاخرة التى انتقلت الينا جيلا بعد جيل باقيا بعضها متصلا وضائعا وبعضها الآخر منقطعا ·

لقد بدا لى أن المقارنة بين التعبيرين الثنائيين هى التى ستهدينا الى سواء السبيل · فاولهما ـ التراث الشعبى ـ المتداول الذى جرى استعماله وصار مألوفا وما ادراك من أوجده ومتى بدا استعماله ؟؟ وثانيهما ـ ثقافة العوام ـ المهمل · نقله الكاتب عن الاستاذ محمود العبطة عن مجلة الثقافة البصرية 1948 عن كاتب بغدادى مجهول ·

فأى منهما يطابق معناه ترجمة فولك لور مطابقة تامة ؟ الواضح من شرح الكاتب ـ معنى فولك ـ لور ـ أن معناهما معا هو ـ الثقافة الشعبية ـ وبناء على هذا ففى كل من التعبيرين المار ذكرهما انحراف وتجاوز فى الترجمة ولكنه مفيد كما سنرى ·

فالمتداول استعمل التراث بدلا من الثقافة والمهمل استعمل العوام بدلا من الشعب اى أن كلا منهما كان مصيبا فى كلمة مخطئا فى أخرى فكيف السبيل اذا وهل لا مناص لنا من تعبير ـ الثقافة الشعبية ـ يا ترى ؟

لنتساهل أنيا فى كونه مركبا من كلمتين ومترجما حرفيا عن لغة اوربية فهل يفى بالمرام ويعبر عما نفهمه نحن لا غيرنا من علم المأثورات الموروثة ؟

الجواب كلا ثم كلا : لان الثقافة الشعبية شىء آخر يختلف عما نقصده فليس علمنا هو الثقافة او

التثقيف بل هو التراث المؤدى الى الثقافة والى غيرها من الاغراض كما انه — اى العلم — لا يتناول الشعب جميعه او الامة كلها بل يبحث ويعالج نوعا وصنفا منهما اى ما يتعلق بالعوام من الناس فحسب · فلو كان للشعب او الامة لما اختص بجزء او فريق منهما ولا كان ثمة حاجة لفرز العوام عن الخواص بل كان علما يبحث ما خلفه الشعب او الامة وما ورثه واورثه من مآثر معنوية منقولة عرفا او تقليدا او تلقينا ومآثر مادية خرساء كالاطلال والصخور والاطيان والعظام وناطقة كالمخطوطات والمطبوعات والنقوش والرسوم سواء كتبت باللغات الفصيحة او باللهجات العامية · فأين هذا من ذاك ·

لنعد اذا الى ماسبق ذكره فنجد ان التعبير المتداول قد خطا خطوة واحدة نحو الهدف المنشود كما نجد التعبير المهمل قد خطا هو الآخر خطوة واحدة ايضا فمابالنا لا نخطو الخطوتين معا فنجمعهما فى تعبير مشترك ونقول — تراث العوام — او التراث العامى — وهو تعبير ملائم وموافق لانه ينطبق على ماشرحناه آنفا انطباقا يكاد يكون تاما لولا انه مكون من كلمتين :

فهل حللنا المشكلة او جزء منها وما العمل وهل عجزنا عن اكتشاف كلمة واحدة ام ان لغتنا كانت قاصرة فى هذا الميدان فلم تستطع اسعافنا وقضاء حاجتنا ؟

بالحسن الحظ ، ما اروع الكلمة او الصدفة التى عثرنا عليها فقد انقذتنا ومحت حيرتنا ومنحتنا ما نريد·

انها كلمة — عَمَم — بفتحتين وزن — شمم وقلم — وهى اسم جمع للعامة ، تتوافر فيها جميع الشروط التى وضعها الكاتب بصورة مطلقة لازيادة فيها ولانقصان ·

وها نحن نقارن بين ما توصلنا اليه وما جاء فى المقال من اجزاء ونقاط مناقشين ومفاضلين نؤيد مانراه مستقيما وننقد ما نراه منحرفا ، فالكاتب يقترح استخدام كلمة (فلق) العربية وان كانت مستغربة عنده مقابل — قوله — الاوربية لسببين :

اولا : لان الثانية اخذت من الاولى اصلا بدليل تقاربهما باللفظ والمعنى ·

ثانيا : (لان الفلق معجميا : هو الخلق كله بعامة ثم خصص فى الاوربيات بمعنى المخلوقات البشرية وهو مثل — الخلق — ايضا كان يعنى المخلوقات بعامة ثم تخصص بالبشر ·)

اننا لا نعارضه لان كلمة — فلق — مستغربة فكل جديد هو مستغرب عند ظهوره حتى اذا مر عليه زمن ولاكته الالسنة وخطته الاقلام صار ترديده مألوفا واستعماله مأنوسا · ولكننا لا نوافقه فيما ذهب اليه ، فلا ندرى هل الاوربية اخذت من العربية ام على العكس؟ ومن يستطيع ان يجزم اذا تشابهت بعض الاحرف فى كلمتين واحدة فى سيبريه مثلا والاخرى فى حضرموت مؤكدا ان اصلهما واحد وذلك بتقليب اللفظ والتلاعب فيه ثم تقليب المعانى وتحويرها واصطيادها وتخريجها وتعليق بعضها ببعض حتى تتلاءم مع تصوره وما افترضه مقدما من وحدة الكلمتين ·

فلو سلمنا جدلا بأن ما قاله صحيح وان الاوربية هى العربية محرفة وان بضاعتنا ردت الينا أفليس فى كل هذا تقليد ومحاكاة للغير الامر الذى يدل على افتقارنا وحاجتنا ان لم يكن للكلمة ومعناها فالى الاصطلاح الغربى الذى سارت عليه · اى نكون قد نقلنا شيئا غريبا ثم وسمناه بكلمة من عندنا لم يخطر على بالها يوما أن تتقمص روحا جديدا على مذهب التناسخ ؟ ؟ فان تجاوزنا هذا ايضا فماذا نفعل بالمعانى المعجمية ؟ هل نختار واحدا فحسب ثم نخصصه اى نقيده ونجعله مصطلحا تقليدا ونقلا عن الغير تاركين او ملغين المعانى الاخرى وذلك بحذفها ومحوها من القاموس ؟

ان الفلق معجميا ليس له معنى واحد فحسب هو المخلوقات كافة ثم خصص بالبشر مثل كلمة — خلق — ايضا بل له معان اخرى كثيرة هى : الصبح · بيان الحق بعد اشكال · المطمئن من الارض بين ربوتين · جهنم ، الشق فى الجبل ، مايبقى فى اللبن فى اسفل القدح ، يقال فى التحقير (يا ابن شارب الفلق) · عود يربط حبل من احد طرفيه الى الآخر وتجعل رجلا المجرم داخل ذلك الحبل وتشدان فيضرب عليهما · والفلق من اللبن المتقطع حموضة · فاذا نسبنا الى الكلمة وقلنا — الفلقى — فاى المعانى هو المنسوب اليه فاين هذا من قول الكاتب — وكما ينبغى فى المصطلح توخى اللفظة الواحدة ينبغى توخى اللفظة ذات المعنى الواحد تفاديا من كل التباس

فلنتجاوز هذا ايضا فهل يتفق ذلك مع شرحنا — للتراث الشعبى — فنحن هناك لم نقبل كلمة شعبى لان معناها اوسع مما نقصد وننهم فكيف نقبل كلمة فلقى بمعنى بشرى لا بمعنى كونى وهى اشمل اتساعا ، فبناء على ذلك كله اعتقد أن مقترح اخينا بعيد عن اصابة الهدف ولا محل له من الاعراب ·

وما بيناه عن — الفلق — يصدق بمعظمه ايضا على — الخلق — الذى استعملته تركية (لا تركيا) بقى قول الكاتب (لم يستطيعوا النسبة الى التراث الشعبى فنسبوا مركزه الى الفلكلور باعتباره كلمة واحدة يوم دعوه دعوه المركز الفلكلورى وهنا يظهر قصور مصطلح — التراث الشعبى — لانه من كلمتين ولو انه صحيح من حيث المعنى كذلك لايمكن اضافة — التراث الشعبى — الى العراق مثلا فيضطرون الى استعمال الكلمة الفرنجية هنا ايضا فى قولهم — فولكلور العراق — فلا يقال تراث شعبى العراق وهكذا)فلي على هذه العبارة بعض الملحوظات :

اولا — فولكلور ليس كلمة واحدة بل كلمتين بدليل شرح الكاتب نفسه فى مكان آخر ولكن يمكننا أن نتساهل ونقول — باعتباره لفظا واحدا ·

ثانيا — مصطلح — التراث الشعبى — ليس صحيحا من حيث المعنى والترجمة بل صحيحة — تراث العوام — أو التراث العامى كما مر ذكره ·

ثالثا — لايمكن اضافة — التراث الشعبى — الى العراق على شكل — تراث شعبى العراق — كما تفضل الكاتب ولكن يمكن اضافته على شكل آخر هو — تراث العراق الشعبى — وبالاحرى العامى ·

وخلاصة ما قدمته أن الكلمة الواحدة المطلوبة والمامولة التى دار البحث والنقاش للتفتيش عنها واحضارها هى كلمة — عَمَم — فهى تفي بالمراد وسيلة وغاية · وهذا لا يعنى أن نترك المرادف الثنائى — تراث العوام — او التراث العامى لان سعة التعبير من خصائص العربية فقد نستحسن أحد المقترحين فى موضع ولا نستحسنه فى موضع آخر فلكل مقام مقال·

وتطبيقا لما سبق فهل نستطيع أن نسمى مجلتنا:

— العَمَميات — او — التراث العممى — او تراث العوام — او التراث العامى — بدلا من التراث الشعبى — وهل نقول — المركز العممى — او — مركز العَمَميات — أو مركز تراث العوام بدلا من المركز الفلكلورى · والذى ليس للفظه ولا لمعناه علاقة بعربيتنا واصطلاحنا كما راينا وهل نقول — العمميات — او — علم تراث العوام — او — العمميون — بدلا من علم التراث الشعبى والمهتمين به · سنرى ·

فما غايتنا سوى الوصول الى الافضل بجهود اي من الباحثين المشكورين والمستحقين الثناء واجر الاجتهاد على كل حال ·

أضواء على صيغة "فعلون" في العربية

الأستاذ : هارون أحمد الغطاس

اطلعت على المقال القيم الذى كتبه الاستاذ محمد بن تاويت بعنوان (صيغة فعلون فى العربية) فى مجلة اللسان العربى الغراء المجلد (12) الجزء الاول ص (63) وقد اعجبت بعرضه الممتع واستقرائه الواسع لكثير من اسماء الاعلام التى على صيغة (فعلون) منذ القرن الاول حتى القرن الرابع عشر الهجرى . ولعله من المفيد أن أقدم بعض الملاحظات فقد جاء فى ص (63) من المجلة ما يلى :

(كنت قد سمعت من استاذنا مصطفى السقاء رحمه الله وانا ادرس عليه بكلية الآداب فى جامعة فؤاد. ان خلدون ومثله مما ولد فى الاندلس العربى على خلقة اقليمية متأثرة بمحيطها الخاص).

ثم ذكر فى نفس الصفحة أن الاستاذ عبد الله بن كنون قدم الى مؤتمر المجمع فى دورته الحادية والثلاثين بحثا له فى اسم (خلدون) وهل هو مكبر على الطريقة الاسبانية ؟ فاحيل الى لجنة الاصول .

ومع تقديرى البالغ لآراء الاستاذ السقاء رحمه الله الا انى ارى أن اسم (خلدون) ليس مما ولد فى الاندلس ولم يك مكبرا على الطريقة الاسبانية بل لم يتأثر باللغة الاسبانية اذ أن هذا الاسم من الجزيرة العربية ومن جنوبها بوجه خاص فان (خالدا) المعروف بخلدون وابن عثمان الحضرمى قدم من حضرموت الى الاندلس ابان الفتح العربى .

ولا لحب أن اطيل فى ايراد المصادر وحسبى أن اذكر أن نسابة الأندلس العلامة ابن حزم تناول نسب بنى — خلدون الاشبيليين ورفع نسبهم الى خالد بن عثمان فقال (خالد المعروف بخلدون الداخل من المشرق ابن عثمان ابن هانىءبن الخطاب بن كريب بن معد يكرب ابن الحارث ابن وائل بن حجر — . . الخ (1) .

وفى نفس الصفحة — قبل ماسبق — نسب وائل ابن حجر الى زيد بن الحضرمى .

كما أن ابن خلدون فى ترجمته الذاتية نقل نسب بنى خلدون عن ابن حزم كما سبق ثم قال (ولما دخل خلدون بن عثمان جدنا الى الاندلس نزل (بقرمونة) فى رهط من قومه حضرموت .)-(2)

ويحسن أن نشير الى أن وائل ابن حجر وفد على الرسول الكريم وله صحبه وقبل قدومه قال صلى

---

1) جمهرة انساب العرب ص (460) تحقيق الاستاذ عبد السلام محمد هارون ، بتصرف.
2) التعريف بابن خلدون . ملحق بالجزء 380/7 ط . بولاق القاهرة .

الله عليه وسلم ، ، يأتيكم وائـل ابن حجـر من أرض بعيدة من حضرموت طائعا راغبا فى الله عز وجل وفى رسوله · واستعمله النبى صلى الله عليه وسلم عـلى الاقيال من أرض حضرموت ، ، وفيما بعد شهد وائـل ابن حجر (صفين) مع الامام على كرم الله وجهه وكان على رائية حضرموت · (1) واسماء الاعلام التى على صيغة (فعلون) شائعة فى اليمن وحضر موت قبل الاسلام وبعد ظهوره والى وقتنا هذا · اذكر على سبيل المثـال اسماء لمدن وترى فى حضرموت لاتزال بعضها عامـرة مثل سيئون ، تيدون ، نفحون ، حيدون ، سمعـون ، حلبون ، وريبون · واسماء لاودية مثل عقرون وعيبـون اما اسماء الاشخاص من الجنسين فاكثر شيوعا مثـل عبدون ، حمدون ، عزون ، عيشون ، زينون ، فضلون،

وبركون ومما يؤيـد قـدم الاسماء التى على صيغـة (فعلون) واصالتها العربية ان بعضها ذكر فى نصوص المسند فمثلا (سيئون) و (دمون) وغيرهما فقد جاء فى النص (32 الكهالى) الذى سجله تالب بن جدنم (جدن) كبير اعراب الملك (ذمار على يهبر) ملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت سجلت فيه كلمتى سيئون ودمون(2)

كما ورد اسم (دمون) فى الشعر الجاهلى ، قـال امرؤ القيـس :

تـطـاول الليـل عليـنـا دمـــون

دمـون انـا مـعشر يمـانـون · (3)

وقال : كـأنى لم اسـر بدمون ليلة

ولم اشهـد الغارات يوما بعنـدل · (4)

---

1) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، عـز الدين ابن الاثير ج 81/5 ط ، طهران
2) فى تاريخ اليمن للاستاذ مظهر على الارياشى ص 4 ف 1 — 115 ·
3) ديوان امرىء القيس تحقيق ابـى الفضل محمد ابراهيم ص 34 طبـع دار المعارف ، القـاهـرة
4) المصدر السابق 473 ·

رأي في بعض المصطلحات الواردة في معجم مصطلحات الجغرافيا والفلك في التعليم العام

الاستاذ عبد الحميد الوسلاتي

بعث الينا الاستاذ عبد الحميد الوسلاتي بالملاحظات الآتية حول مصطلحات الجغرافية والفلك في التعليم العام وهو من معاجم المؤتمر الثالث للتعريب:

يقول فيها « . . . بأنني توصلت عن طريق وزارة التربية القومية بتونس بمصطلحات الجغرافية والفلك في التعليم العام وانى اشكركم جزيل الشكر على المجهودات الجبارة التي بذلتموها انتم ورفاقكم في المكتب من أجل الرفع من مستوى لغتنا العربية وجعلها مواكبة لتطور العصر كما ساهمتم بعملكم هذا في انقاذ شبابنا العربي من فوضى المصطلحات التي كانت تختلف من قطر لآخر وحتى من أستاذ لآخر في نفس الكلية وقد عانيت الكثير من هذا الوضع بصفتي خريج كلية العلوم بجامعة دمشق .

وانى أعتقد جازم الاعتقاد أن هذا العمل الذي تقومون به في نطاق الجامعة العربية سيكون له دور فعال في توحيد لغة العلوم عند شباب أمتنا العربية ويجعله يتكلم نفس اللغة العلمية من الابتدائي الى الثانوي فالعالي وهذا ان وجد الاعتناء والتطبيق من طرف وزارات التربية القومية في الوطن العربي وهذا يعد عملا جبارا للمساهمة الفعالة في نهضة لغتنا العربية وجعلها تساهم بدورها الايجابي في النهوض والمساهمة في تطور مسيرة العلم ، وايقاف تيار التغريب الذي يرمي لغتنا بالعجز وفوضى المصطلحات . . . » .

1 — لقد ورد في الصفحة — 10 — من المعجم تعريب كلمة « Coefficient » **بمعامل** بينما الذي شاع استعماله خاصة في سوريا وتونس هو **الضارب** والذي يجمع على ضوارب وهي اخف في الاستعمال من معامل .

2 — ورد في الصفحة — 11 — من المعجم تعريب « Courbes de Niveau » **بخطوط الارتفاعات المتساوية** والذي شاع استعماله في سوريا وهي البلد العربي الذي عرب جميع فروع العلم من الابتدائي الى العالي **منحنيات التسوية** وهو اصطلاح ادق واخف من خطوط الارتفاعات المتساوية .

3 — ورد في الصفحة 19 — من المعجم تعريب كلمة « Artisanat » **بصناعة حرفية** وفي صفحة — 43 — من نفس المعجم تعريبها أيضا **بصناعة تقليدية** وأعتقد أن التعريب الأخير أكثر دقة .

4 — ورد في الصفحة — 23 — من المعجم تعريب كلمتي « Aiguille aimantée » **بابرة ممغظة** بينما المستعمل والصحيح هو **ابرة ممغنطة** .

5 ــ ورد فى صفحـــة ــ 29 ــ تعريب كلمـــة « étang » **بفدير** بينما المستعمل هو **مستنقع أو بركة**.

6 ــ ورد فى الصفحة ــ 31 ــ من المعجم تعريب « Topographie Régionale » **بمسح اقليمى**. بينما نجد فى الصفحة ــ 37 ــ من نفس المعجم تعريب « Carte Topographique » **بخريطة طبوغرافية و** « Topographie » **بطبوغرافيا** · لذا ارى الأفضل استعمال **طبوغرافيا** فى كـل الحـــالات ·

7 ــ ورد فى الصفحة ــ 36 تعريب « Betterave sucrière » **بشوندر السكر أو بنجر** بينما يستعمل هنا فى تونـــس مصطلح **اللفت السكرى** وهو مصطلح عربى صميم ·

8 ــ ورد فى الصفحـــة ــ 54 ــ تعريب كلمـــة « Poissons » **بالحوت** · وهذا خطأ فادح حيـــث أن كلمة « Poisson » تقابلها فى العربية كلمة **سمك التى** تجمع على أسماك وهى حيوانات تتنفس الاكسجـــين الذائب فى الماء بواسطة غلاصمها · بينما الحوت يقابلها فى الفرنسية « les Cétacés » وهى حيوانات ثديية لها شكل الأسماك تعيش فى البحر وتتنفس الاكسجين من الهواء مباشرة بواسطة رئتيها وهذا مثل **البـــال** « Baleine » **والدلفين وحوت العنبر** « Cachalot »

9 ــ ورد فى الصفحة ــ 56 ــ تعريب كلمـــة « Vertical » بكلمة **راسى** بينما المستعمل فى سوريا وتونس هو **الشاقول** فنقول خطأً شاقوليا ومستـــويا شـاقوليا وهو آت من الشـاقـــول وهو الخيط الـــذى يستعمله البناء والذى ينتهى بقطعة رصاص ·

**

ملاحظات حول

دليل مصطلحات المواصفات القياسية العربية

الجزء الثاني

ـ مشروع أعدته المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس

سبق لمكتب تنسيق التعريب ان نشر فى العدد الرابع عشر من مجلة « اللسان العربى » الجزء الاول من هذا الدليل القيم بعد اعادة النظر فى بعض المواد التى احتوى عليها وتصحيح ما ورد فيه من الاخطاء المطبعية وغيرها ·

وكان بودنا أن ننشر الجزء الثانى الذى أرسل الينا لنفس الغرض الا أن خبراءنا اللغويين بعد أن راجعوه وامعنوا النظر فى مواده اكتشفوا أخطاء كثيرة فى اللغات الثلاث ولا سيما الفرنسية فارتأوا بعد تصحيح ماستطاعوا تصحيحه أن يعاد هذا الجزء الى المنظمة الموقرة لكى يتمم خبراؤها المتخصصون عمل المراجعة والتصحيح لان عددا من المصطلحات والتعابير التقنية لايستهان به كان موضوع شك او غموض من طرفهم فوضعوا عليها نقطا استفهامية وفضلوا ان يعاد النظر فيها من أجل الايضاح والتدقيق ·

وفيما يلى بعض انواع الاخطاء التى وردت فى الجزء الثانى من الدليل مع الاشارة الى بعض الأمثلة ·

1) اختلال الترتيب الالفبائى : مثلا الكلمات الواردة فى القسم الخاص بحرف (أ) حيث يوجد الكثير من المصطلحات مبتدئة بغير هذا الحرف ولكنها ادرجت فى هذا القسم بسبب تعريفها بأل · ومن بين الامثلة الكثيرة ايضا الأفعال التى رتبت فى القسم الخاص بحرف (ي) والتى ادرجت فيه بسبب ابتدائها بياء المضارعة · وهناك اغلاط اخرى متعددة تدل على عدم الدقة فى الترتيب ·

2) تكرار المصطلحات بعد ارقام مختلفة : والامثلة كثيرة هنا ايضا نكتفى بالاشارة إلى بعضها · انظر المادتين رقم 138 و 184 ، ثم 147 و 186 ، ثم 153 و 187 ، ثم 654 و 656 وما بينهما · وقد تختلف الترجمة للمصطلح الواحد المكرر كما يلاحظ ذلك فى الامثلة التالية: 83 و 175 · ثم 733 و 789 ثم 803 و 606 و 1011·

3) اغلاط تتعلق بالمعانى وقواعد اللغة ، ومن امثال ذلك استعمال كلمتى «دخل وخرج» بدلا من دخول وخروج فى المادتين رقم 121 و 122 واستعمال كلمة «اعياء» بدلا من عياء فى المادة 151 ، وترجمة كلمة «Drainage» بكلمة « تصفية » عوضا عن صرف أو تصريف(انظر رقم 244) · اجل قد يكون الصرف (أو التصريف) وسيلة للتصفية فكان فى هذه الحالة ينبغى استعمال العبارة : « التصفية بالصرف » التى يقابلها بالفرنسية :

« Purification (ou épuration) par drainage »

انظر ايضا التعليق الهامشي على المادتين رقم 225 و 226 ، ومن الاخطاء الدالة على عدم تطبيق بعض القواعد ايراد نعوت كثيرة منتهية بتاء التانيث (ة) الدالة على جمع غير العاقل فى حين أن مقابلها الأجنبي يأتي بصيغة المذكر المفرد (أو العكس بالعكس كما ورد فى المادة رقم 2127 مثلا) · وقد وردت كلمة « خالى » بدلا من خال وكلمة « محاكى » بدلا من « محاك » و « واقى » بدلا من « واق » ·

4) اغلاط تتعلق برسم الكلمات ، وهى كثيرة جدا فى المصطلحات الفرنسية ·

5) ترجمة افعال لازمة بافعال متعدية — أو العكس — : انظر مثلا المواد 2895 و 2896 و 2922·

6) ترجمة الفعل بنعت أو العكس وتوجد أمثلة من هذا النوع من الأخطاء فى الصفحتين 153 و 154 ·

وهناك ايضا اخطاء مطبعية عملنا ما استطعنا على تصحيحها ورجاؤنا أن يتم التصحيح فى المنظمة الموقرة حتى يصدر هذا الجزء الثانى من الدليل على الوجه الأكمل ·

دراسات متنوعه

1 — المشكل الديموغرافي والتطور الاقتصادي	الاستاذ عبد العزيز بنعبد الله	185
2 — مدخل الى اللغويات التطبيقية (2)	الاستاذ : بس . بيت كوردر ترجمة الاستاذ جمال عبد الفتاح صبرى	197
3 — تكوين الفكر العربي قبل الاسلام (3)	د / رشاد محمد خليل	209
4 — مستقبل اللغة العربية	الاستاذ محمد بن أسماعيل ترجمة الاستاذ محمد الخطابى	215

الحرية الواعية والمشكل الديموغرافي والتطور الاقتصادي

ان المومن الصالح فى الحاضرة الاسلامية الفاضلة يتسم بميزتين أساسيتين تنفصل عنهما كل المقومات الخلقية والاجتماعية الاخرى وهما روح التحرر والشعور بالمسؤولية فالمسلم حر يجب أن يظل حرا فى نطاق حرية الغير كما أن له تبعات حضارية فى البيت والمجتمع وازاء الانسانية يجب أن يضطلع بها فلينجب ما شاء له الانجاب ولكن فى حدود امكاناته التى تحوطها مقدرات المسؤولية والتى يجب تقييم ابعادها فى نطاق ملابسات الامة وظروفها وبذلك امكن للاسلام الذى هو حقا الدين الصالح لكل عصر ومصر أن يواجه ما اعترض نموه الطبيعى واشعاعه الحضارى فى مختلف العصور .

ان نماء سكان العالم بعد العصر الصناعى قد بلغ ارقاما خيالية حيث ارتفع من مليار واحد ونصف مليار عام 1900 الى ثلاثة ملايير ونصف عام 1970 لهذا فان التقنيات التى تستهدف تنقيص الوفيات والتى تعززها فى الولايات المتحدة واوربا تغييرات اجتماعية واقتصادية اساسية تحاول أن تحقق توازنا مع تقنيات موازية تعمل على خفض نسبة الجهل والامية والغلط فى الاتصال للوصول الى نقص فى نسبة الولادات لهذا فان الاستقرار الديموغرافى يجب أن يتبلور مبدئيا فى تحقيق التوازن بين الولادات والوفيات ، وسنحاول — من أجل ابراز معالم هذا المشكل — التنظير والمقارنة بين معطياته فى الولايات المتحدة الراسمالية والصين الشعبية الاشتراكية والعالم الثالث وخاصة المغرب كما سنوضح فى عرض تاريخى مبسط كيف استطاع المغرب المستقل طوال الف عام وبفضل الاخلاقية الاسلامية الفاضلة تركيز واقرار مستواه الاجتماعى جاهلا ماعرف اليوم بمشكل السكان .

ففى الولايات المتحدة التى تعتبر احدث وارقى منطقة فى العالم يتمخض « التفجر الديموغرافى » عن ارتفاع السكان من ستة وسبعين مليونا (76) عام1900 الى ما يقرب من مائتين وخمسة ملايين (205) عام 1970 فالمشكل الديموغرافى تتواكب فيه عدة عوامل منها نسبة الولادات والوفيات ومعامل خصوبة الانسال والعنصر الاجتماعى والاقتصادى ويهدف التخطيط العالمى الى ضمان التوازن بين هذه المعطيات لخفض الوفيات وكذلك النقص من المواليد بتحديد النسل عن طريق منع الحمل وهنا ينبغى ان نميز بين ما يسمى بالضبط او التنظيم الديموغرافى او تحديد المواليد من جهة وبين التخطيط العائلى الذى يعتبر مجرد وسيلة لحماية الامومة والطفولة بالتقليص من نسبة وفيات الاطفال ارتكازا على تصميم وقائى مناسب وهكذا نلاحظ أن هذه العوامل تتفاعل كلها لخلق بوتقة من التاثير المتبادل قد ينتهى الى

(1) محاضرة القيت باللغتين العربية والفرنسية باسم الوجود الاسلامية فى المؤتمر الاسلامى المسيحى الذى انعقد بتونس عام 1976 .

نوع من التحييد لبعضها والغريب فى هـذا الصدد أن ارتفاع الوفيات يشجع احيانا قوة الانسال ويخلق لوازم اجتماعية واقتصادية معكوسة لهذا نجد أن معدل الانجاب يجب أن يبلغ أوجه فى افريقيا الاستوائية لكفالة توازن ديموغرافى فالمسئولون يعملون اذن على اقامة جهاز اجتماعى من شانه أن يخفض نسبة الوفيات قبل القيام بنهج أية سياسة تستهدف تحديد النسل بنشر الوسائل المضادة للحمل ويستعمل الناس خطأ — فى بعض الاحايين — عبارة «تفجر ديموغرافى» دون تمييز بين نسبة تزايد السكان فى بلد ما وبين المساحة الصالحة فى هذا البلد والوسائل الفعالة لضمان تطورها وقد اكد بعض علماء الاقتصاد البريطانيين ان عدد سكان كل « اكر » مزروع (اى نحو اربعة آلاف متر مربع) فى الصين اقل منه فى بريطانيا العظمى او اليابان حيث تقدر فى كل منها بسبعة وتسعة وثلاثة عشر.

ويدخل العامل الاقتصادى والاجتماعى ايضا فى الحسبان من اجل خلق محيط صالح وملابسات ملائمة للتطور غير ان هذا العامل ليس هو كل شىء لان مشكل التشغيل — لا القدرة التقنية على انتاج الطعام — يمثل النقطة الحرجة داخل تسعين الى مائة بلد تشتمل على سبعين فى المائة من سكان العالم ذلك أن المفاعلات المتسلسلة للنماء الديموغرافى السريع ولنسبة البطالة وتناقص الشغل وانخفاض القوة الشرائية كل ذلك كاف وحده لطبع صيرورة اى تطور او اصلاح فى الوضع الاقتصادى والاجتماعى . واذا حاولنا أن نضرب مثلا بالولايات المتحدة الامريكية فاننا نلاحظ أن ارتفاع سكانها راجع خاصة الى عامل آخر هو الهجرة اى توارد افواج من البشر قدر عددها باربعين فى المائة خلال السنين العشر الاولى لهذا القرن وفى عام 1971 اجتازت الولايات المتحدة فترة عانت الامرين اثناءها بسبب تناقص نسبة الولادات، لهذا تختلف عوامل النمو بين بلد وآخر ، كما تختلف الحلول التى تتناسب مع هذه المعطيات وقد صدق الكونغريس الامريكى فى نفس السنة اى عام 1971 تحت هذا التاثير على قانون يحظر منع الحمل الامر الذى شكل عائقا امام منهجية التنظيم العائلى ومع ذلك فان الوضع القانونى الجديد لم يحل — بسبب عدم استعمال المشروع للمواد والاجهزة المحددة للنسل — دون لجوء عدد كبير من الناس الى عملية التعقيم الطبى لاسيما بعد صدور قانون 1972 الذى ينص على «جواز الاجهاض بطلب خاص وعن طريق طبيب اخصائى » فهذا التشريع يقلل من الاخطار المحتملة الناتجة عن الاسقاطات والاجهاضات غير المشروعة التى تتراوح كل سنة بين مائتى الف ومليون ومائتى الف فى امريكا والهادفة لإعاقة كل حمل غير مرغوب فيه ، ولهذا تتجه السلطة التشريعية الامريكية اليوم الى حصر الاضرار وجعل حد لعملية غير انسانية وهى الواد الاختيارى للحياة وذلك بتشجيع — على مراحل — لتقنية منع الحمل وللتخطيط العائلى وتتبلور هذه البادرة خاصة فى الاسبقية المخولة للدراسات الاحيائية فى ميدان الانسال والانجاب وللبحث عن أحسن الطرق التى تمكن الافراد من «كبت مايتوفر لديهم من قدرة على الاخصاب » تلك اذن وسائل جديدة ترمى الى وضع خطوط تعليم جنسى سلائم ، فلنستشف الآن المرآة التى تنظر من خلالها الى هذا المشكل دولة اشتراكية موغلة فى مذهب «لينين» مثل الصين الشعبية حيث قدر عدد السكان عام 1968 بسبعمائة وثلاثة عشر مليونا كما قدرت نسبة تزايد هؤلاء السكان باثنين فى المائة فقد نظم اول موسم دعائى لفكرة التخطيط العائلى منذ عام 1956 اذ وزعت على اوسع نطاق الوسائل الكفيلة بمنع الحمل مرفقة بنصائح بحسن استعمالها وهذه الخطة فى التلمس والتحسس مجردة عن كل خطر فى هذه المرحلة الاولية لانها لا تتجاوز نطاقا تثقيفيا تحرريا فى ميدان منع الحمل غير ان الصين التى كانت اذ ذاك لا تزال فى صراع ضد الامية كانت ايضا تجتاز فترة مخاض نظرا لوجودها آنذاك فى طور الانتقال الى دولة اشتراكية قوية عصرية تعتمد على قواها الذاتية وعبقرية شعبها مما حدا الرئيس ماوتسى تونغ الى القول عام 1958 بأن كثرة السكان «شىء جميل غير قبيح» اذ بتصنيع البلاد وتقوية انتاجها الفلاحى تصبح قوة اليد العاملة قليلة وتتزايد الحاجة اليها باطراد لهذا فان توفر عدد ضخم من السكان يتحرك فى دفاع تلقائى ويخوض معركة الشعب ضمن ترابه الذاتى من شانه أن يمد الصين بقوة لا تقهر غير أن هذا الموقف «المحايد» لم يمنع بتاتا من وضع جهاز للتخطيط العائلى فى الصين فى نفس الوقت الذى شعرت الجماهير القروية بالطابع الطليق الحر لهذه السياسة فظلت حيرى فى ترقب وانتظار بينما انبرت الاطر القومية ورجال الفكر تجوب

انحاء البادية عام 1958 ـــ تلبية لنداء مَاوْ ـــ داعية لفكرة ضبط وتحديد الولادات ، ولكن منذ عام 1963 انطلق التخطيط العائلي المنظم من عقاله ـــ بايماز من الرئيس ماو ـــ تسانده فئات متحركة من الاطباء والممرضين معززة بلقاح يحقن في رحم النساء لمنعهن من الحمل وقد ارتأت الاشتراكية ان المهم هنا هو انعدام اى تهديد أو ضغط اقتصادى على العائلة وهكذا تظل مبررات الاختيار الحر المرتكزة على امكانات ووسائل كل عائلة ـــ منبثقة من تحرر المراة وحقها فى الدراسة ووعيها المتزايد واسهامها الفعال فى اقامة اسرة مكينة. وفكرة التحرر هذه تشكل ضمن اى جهاز تخطيطى ، النابض الحى والسر الجوهرى لكل نجاح فالشعب يتمكن فى هذه الحالة من ان يكون لنفسه ـــ بكامل الحرية ـــ صورة متبصرة لمصلحته ذلك ان المصلحة العامة الحقيقية للامة هى فى كل مجتمع اشتراكيا كان او غير اشتراكى لمدار أو المحور الذى يضبط كل تحديد فى البنية والهيكل وان الاسلام فى بساطته ومرونته وقابليته للتطور حسب المقتضيات الانسانية المتجددة وطبقا للوازم المنطق والعقل لهو المذهب الذى ينطوى على روح تحررية أوْفَى واعمق اذ ان نظرته الاصيلة وما يترتب عنها من اختيارات منوطة باستكناهه الانسانى الواعى للبواعث الواقعية التى تبرر قيام اى جهاز ثقافى وفكرى واجتماعى واقتصادى فهنالك مبدأ اسلامى يرى أن من جملة معايير التقدير فى التشريع مافعله الرسول عليه السلام من «تحكيم العادة» وما نهجه الامام مالك بناء على ذلك لقياس الجواز فى مذهبه وهو مبدأ «المصالح المرسلة» مما شجع أفواج البشر الى الدخول فى الاسلام بكثرة وخاصة فى القارة الافريقية المعروفة بتعلقها بالتقاليد الموروثة فالايديولوجية الاشتراكية فى اطارها الماركسى وكذلك التصور الاسلامى للصالح الاجتماعى الحق ـــ كلاهما يستلزم نكران الذات والايثار وتملك النفس وضبط العواطف والنزعات والغرائز وهى كلها مقومات معنوية لتعزيز كل تخطيط يبدو صلاحه ولو ادى الى اعاقة الحمل وتحديد النسل ، وقد أوعزت الصين الشعبية الى الشبان بالعمل على تاخير سن الزواج اى ميقات الانجاب الى خمس وعشرين سنة أو اكثر كما بنى الرسول عليه السلام بخديجة زوجته الاولى وهو لم يتجاوز هذا العمر ذلك ان الديناميكية الاسلامية التى تواكب الاشتراكية الصينية معها هاهنا تهدف الى دفق فيض طاقتها وطفحها فى الحياة النشطة التى يدعو اليها الاسلام ، كما يجد الشاب الصينى ملهى فى الرياضة البدنية وفيما يشعر به من لذة فى بادرات التجديد والعمل المنتج ولكم يردد الصينيون ـــ وهم شعب من شعوب اقطار العالم الثالث ـــ بأن سعادة الشباب ليست فى الاباحية الجنسية التى تتمخض فى الولايات المتحدة عن عدد من حالات الامراض الزهرية تبلغ سنويا مليونا وسبعمائة الف اصابة جديدة ولهذا ترى الصين أن الاشتراكية ليس معناها الاخلاد الى مكسب من المكاسب بل انها تتجلى فى الجهد الدائب المستمر من اجل تجديد تربية الانسان وقد أوضح الفيلسوف الاجتماعى التونسى ابن خلدون قبل صدور كتاب كارل ماركس «راس المال والشغل» بقرون ان العمل هو راس المال الحقيقى الذى يسهم فى بناء صرح كل حضارة وعمران(1) ثم ان الثورة الثقافية التى تحققت فى الصين ليست فى نظرها سوى تركيز للنظرة البيداغوجية العريقة الى المسيرة الثورية التى ستسهم فى ضمان تطور نهائى للتعليلات والمطامح الفردية التى هى مفتاح السلوك وخاصة سلوك الانسان فى ميدان الانجاب وتنمية النسل، وقد ابرز مدير البنك العالمى فى استجواب (2) اخير «حاجة العالم الثالث الى تحديد النمو الديموغرافى بأى ثمن والا فسيؤدى الامر حتما الى كارثة كونية»

ان العالم يشهد اليوم ارتباكا شاملا ففى نفس الوقت الذى يتم تخطيط الاقتصاد على نسق متسلم فى الصرامة والشدة ، نرى السكان فى العالم الثالث وغيره يتزايدون أو يتناقصون أو يهاجرون دون اى جهد منطقى متماسك تقريبا عدا شواذ نادرة تنبثق فى بعض البلاد كالصين لتوجيه هذه الحركات فهل من حاجة لتاكيد ان التخطيط الاقتصادى سيظل مرتهنا بصورة خطيرة مادام لا يتوازى مع تخطيط آخر للنمو الديموغرافى ذلك

---

1) كتاب «فكرة ماوتسى تونغ» ـــ كودفان بريفات ـــ باريس 1971 (J. Godfin-Privat)
2) فى جريدة «الاوبسيرفير Observer» ـــ لندن ثالث اكتوبر 1971

التخطيط الذى لسنا فى حاجة الى القول بانه لا يجب ان يهدف حتما الى تحديد النسل بل يمكن ان يرمى كذلك الى تنمية الخصب والانجاب كما فعلت رومانيا اخيرا فى سياستها السكانية (1) « ومعظم بلدان العالم الثالث ليست لها سياسة شاملة للنمو محددة مضبوطة بل انها فى غالب الاحيان لاتكون قد قامت حتى بجرد مواردها لهذا فان تبنى سياسات سكانية تنحصر تعريفاتها تقريبا — بايعاز المستشارين الغربيين — فى عبارات تحديد النسل — يجب ان يشهر به كأسلوب خاطىء لوضع مشكل التنمية ووسيلة خطيرة تصرف العالم الثالث عن العناية بالقضايا الاكثر اهمية والتى تتسم بطابع سياسى فقضية السكان ليست هى المنزع الاجتماعى الوحيد الذى يمكن ان نركز عليه بقوة (2) ، ان العنصر السكانى ربما كان اصعب تخطيطا من باقى العناصر الاساسية فى مسيرة التطور بل اننا لنرتاب اشد الارتياب حتى فى قدرة الانسان على تحقيق ذلك فى هذه المرحلة من التطور السياسى والثقافى والروحى للانسانية» .

ويضيف الكاتب قائلا :

« وهكذا فان المحاولة المتجددة من طرف الاخصائيين الغربيين والهادفة الى تحديد سياسة سكانية فى عبارات مستمدة من مذهب مالتوس Malthus الذى هو اساس ايديولوجيتهم ثم فى عبارات تحديد الولادات — ان تلك المحاولة يجب ان يرفضها العالم الثالث لانها نابعة من خلل وارتباك عميقين فى المفاهيم والمدركات القائمة بين تعليلات منع الحمل وانجازات الاجهزة المكلفة بنشر هذه الموانع » . ان سياسة قوية لتطوير الاقتصاد لهى المفتاح الاكبر لكل سياسة سكانية هادفة الى تحديد الولادات اذ ان اساس اية سياسة من هذا القبيل فى البلدان غير المصنعة لايمكن ان يكون غير رفع مستوى الحياة واستقرار حركة التشغيل والاستخدام ولا يخفى ان تطبيق ميثاق الجزائر المتعلق بالحقوق الاقتصادية للعالم الثالث والذى وضعه فوج الدول السبعة والسبعين بعاصمة الجزائر فى شهر اكتوبر 1967 — يرتبط مباشرة بمشاكل منع الحمل بالوسائل الاصطناعية فتطبيق مثل هذه التدابير الاقتصادية هو الشرط الذى يبرر تعليلات موانع الحمل تلك التحليلات التى ستبقى بدونها كل حملة تعقيمية (اى هادفة الى التعقيم من أجل الحيلولة دون الانجاب) عديمة الجدوى (3) فاذا كان تحديد النسل قد يتجلى احيانا لا كمبدأ مقبول فحسب بل ضرورى فان نجاحه سيظل مشروطا بتطبيق ملائم يُدخل فى حيز الاعتبار مقتضيات البيئة ذلك ان البناء التقليدى للمجتمع ينبغى اصلاحه بادىء ذى بدء باستئصال شوائب السلبيين من انصار patriarcalisme المذهب القائل بوجوب سيطرة الآباء فى الاسرة ذلك المذهب التى تختلط لوازمه بمقومات التقليد الاسلامى الصحيح اى السلفية الحق ، ثم ان خطر استعمال التقنيات الحديثة فى المنع الاصطناعى للحمل يكمن فى استيراد اعمى لكل مادة او فكرة اجنبية دون اى اعتبار للقوام الاجتماعى الذى يقحمه الاسلام فى المفهوم العام ذلك المفهوم الذى يجب ان يكيف المجتمع الفاضل وقد صدرت دراسات فى الموضوع (4) تبرز سلسلة من الاجراءات الكفيلة بتعزيز المعللات المانعة للحمل فى العالم الثالث منها بالاضافة الى محاربة الوفيات — التحرير المعنوى للمراة وتنظيم دروس فى التربية الجنسية والتوجيه العائلى على مستوى المعاهد الثانوية مع اختيار الفترة الصالحة نفسانيا (وهى فترة مابعد الوضع) لتلقين المراة مبادىء التخطيط العائلى عن طريق المرافق المخصصة فى حماية الامومة والطفولة. وتستجيب المواد الكلاسيكية فى الفقه الاسلامى المدرجة فى برامج السلكين الثانوى والابتدائى بمعاهد التعليم — لهذا النداء الذى هو نداء الطبيعة فى سياقها الخلقى الاجتماعى فالفتاة والفتى يتلقى كلاهما معلومات دقيقة تلقى ضوءا كشافا على الفعالية الحقيقية لكل علاقة جنسية يظل موضوعها الاساسى هو الانجاب والاتصال فى حدود الوسائل المتوفرة بل ان الاسلام يوصى بالتخلى عن الزواج عند تعذر الامكانات المادية فقد قال عليه السلام «من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » ولكلمة باءة مفهوم مزدوج هو الزواج اولا ثم اقامة منزل صالح الامر الذى يستلزم

---

1) على اثر انخفاض قوي فى عدد الولادات عام 1968 حيث اتخذت رومانيا سلسلة تدابير لتشجيع الانجاب

2) مجلة تطور وحضارة — عدد خاص (47و48) باريز — 1972 ص 128 و 131 .

3) كتاب اقتصاد مراقبة السكان ، محاضرة للاستاذ ديميني P. Demeney باشرف الاتحاد الدولى للدراسة العلمية للسكان — لندن 1969 (م، 6)

4) وضع وتطبيق سياسات سكانية فى العالم الثالث (عراقيل وامكانات) بقلم بيير برادير فان Pierre Pradervand فى المجلة المذكورة تطور وحضارات الخ .

قـدرة مادية لبناء بيـت على دعائم قـوية اجتماعيـة واقتصادية .

وهنا يمكن أن نتسائل كيف يتجلى هذا المشكـل الديموغرافى فى الشمال الافريقى وخاصة فى البلديـن المتجاورين الجزائر والمغرب ؟ ففى الجزائر تنجب كل امراة متزوجة يتراوح سنها بين الخمسة عشر الى حدود الخمسة والاربعـين ولاتخضع لاى انقطاع فى مجـرى اخصابها — معدل عشرة أطفـال بقطـع النظـر عن الاجهاضات والاسقاطات وغيرها (1) وقد احصت وزارة الصحة الجزائرية عام 1968 نحو الالف حالة من وأد المواليد خاصة لاسباب اقتصادية وقد حاولت الجزائر الاجابة عن هذا التحدى الديموغرافى بنهج استراتيجية للتطور الاقتصادى (ضمن تصميم يمتد من 1967 الى 1980) وهـى كالآتـى :

1) تحقيق التكامل الاقتصادى بتأسيس صناعة تحويلية للمواد التى كانت تصدر فيما قبل بحيث يصبح ميزان الاداءات سويا سليما بقدر ما يحصر الاستيـراد فى مواد التجهيز الضرورية لخلق فروع تكميلية للاقتصاد الجزائرى .

2) تنمية راس المال الصناعى الجزائرى بفضل سياسة تعمل على توسيـع نطاق الصادرات وخاصة منها المواد الهيدروكاربونية (اى المشتقة من البتـرول) وبذلك تتم تنمية الطاقات لتكديس التوظيفات فى مجموع الاقتصاد .

3) اقامة جهاز جديد للتكوين يتطابق مع الحاجات الاقتصادية المتبلورة فى اضفاء طابع ديمقراطى علـى التعليم وتعميم عملية التدريب والتثقيف .

4) القيام بتوزيع جديد للموارد بالغاء البطالـة أى خلق وظائف جديدة وتوسيع رحاب السوق الداخلية التى هى محور النمو الاقتصادى فى البـلاد .

اما فى المغرب فان 7ر 70 فى المائة من مجمـوع السكان كانوا يعيشون عام 1960 فى البادية و 3ر 29 فى المائة فى الحاضرة ، وقد أسفرت الاحصاءات عام 1971 عن نتائج تبرز نقصا خفيفا فى نسبة سكان الحضر (9ر49 فى المائة مقابل 1ر 35 فى المائة بالباديـة) ومن جملـة العوامل التى قد تكون السبب فى هذا التقلص الديموغرافى بين اهل الوبر ظاهرة الانجـذاب نحو المدن الكبـرى فالمغرب بلد تعتبر نسبة الولادات فيه من أعلى النسب فى العالم فقد بلغت كثافة السكان — فى مساحة تبلـغ فى مجموعها 444000 كيلومتر مربع — معدل 33 فرد فى كل كيلومتر مربع عام 1968 وارتفعت — حسب الاحصاءات الرسمية — بنسبة فرد واحد لكل كيلومتر مربع ولكل سنة وبعد الاحصاء الذى تم عام 1960 قدر عدد سكان المغرب : 232 626 11 نسمة فى حين وصل حسب احصاء 1971 الـى 259 379 15 من بينهـم 987 111 من الاجانب وقد ارتفع معـدل افراد كـل عائلة من 9ر4 اشخاص بين سنتى 1961 — 1963 الى 5ر4 عام 1971 وذلك بالرغم عن قلة الاسر المغربيـة التى تتعدد فيها الزوجات (ثلاثة فى المائة فقط)فـاذ عمدنا الى دراسة مقارنة للارقام المتمخضة عن احصاء عام 1960 وعن العمليات الاحصائية السالفة فان مجمل نسبة الولادات يبلغ حوالى 50 فى المائة ونسبة الوفيات 17 فى المائة وبعبارة اخرى فان معدل نسبة ارتفاع سكان المغرب الذى كان يقدر عام 1969 بثلاثة وثلاثين فى المائة سيؤدى الى ضعف هذا العدد من السكان فى ظرف احدى وعشرين سنة ليصبح ثلاثين مليون نسمة عام 1990 — ومن جهة أخرى يصل عدد المسلمين فى المغرب الـى تسعة وتسعين فى المائة من مجموع السكان اما تعليـم الاميين فان نسبته فى الحواضر اكثر منها فى البـوادى حيث تبلغ فى الاوساط الـحضرية — حسب احصاءات 1961 — 1963 — 29 فى المائة (اى 41 فى المائة بين الرجال و 17 فى المائة بين النساء) بينما تصل بين اهل الوبر الى 18 فى المائة بالنسبة للرجال واثنين فى المائة بالنسبة للنساء وفى عام 1971 قدرت نسبة محو الامية بـ 5ر76 فى المائة مقابل 83 فى المائة عام 1960 والفرق هام بين الوسط الحضرى (56 فى المائة) والبادية (88 فى المائة) اما عدد الاطفال الذين تحتضنهم المدارس فقد وصل عام 1971 الى 1974000 من بينهم 530000 طفل فى البادية (28 فى المائة منهم فى الكتاتيب القرآنية)

---

1) منشور حول برامج التخطيط المغاربى بافريقيا (مركز تطـور التنظيـم والتعـاون والتقدم الاقتصادى) — باريز 1970 ص 14 .

ومن جهة اخرى ارتفع الدخل الوطنى عن كل نسمة من السكان ــ بين سنتى (1961 و 1969 من 674 درهما (134دولارا امريكيا) الى942 درهما (188دولارا) ولكنه نقص عام 1969 بـ 0،30 فى المائة بالنسبة لعام 1968 وقد بلغت الطبقة الشغيلة عام 1971 مايقرب من اربعة ملايين اى 26 فى المائة من مجموع السكان وتتجاوز نسبة البطالة فى المدن خمسة عشر فى المائة بينما لا تتعدى 4،7 فى المائة فى البادية واذا اردنا ان نتعرف الى التداخل الحاصل بين النمو الديموغرافى والتطور الاجتماعى والاقتصادى فيكفى ان نقارن تزايد السكان ــ باعتبار معاملات الوفيات وخصوبة الانجاب مع نسبة التاثير على الدخل القومى ففى هذا الصدد سيتبلور النماء الديموغرافى اى زيادة السكان ــ فيما اذا استقرت نسبة خصوبة الانسال ــ فى 000 500 26 نسمة واذا ما استمر هذا الاستقرار الى عام 1985 فان مستوى حياة المواطن لايمكن ان يحتفظ بوتيرته ــ بعد عشرين سنة (اى بين 1965 و 1985) الا اذا ارتفعت رؤوس الاموال الموظفة باثنين وخمسين مليارا وذلك بقطع النظر عن ضرورة احداث اربعة ملايين وظيفة جديدة للقضاء على البطالة تتطلب توظيفات اضافية تقدر ب 107،5 ملايير زد على ذلك ما يستلزمه بناء دور سكنية رخيصة اى خمسة عشر مليارا (ثلاثة ملايير دولار) وخمسة ملايير درهم لمواجهة تكاليف الزيادة فى عدد الاطفال الذين تحتضنهم المدارس بكيفية موازية يجب أن ترتفع الميزانيات الاجتماعية الاخرى كميزانية تسيير الصحة العمومية بما لا يقل عن ثلاثة فى المائةوهكذا يتثاقل العبء على الدولة دون أن تخفف من حمله زيادة ملائمة فى انتاج المحاصيل او الماشية الذى ظل قارا ــ اذا لم يكن قد نقص احيانا ــ طوال نصف قرن .

واذا اعتبرنا هذه المعطيات أمكن أن نقدر مدى ما ينطوى عليه النمو الديموغرافى من أخطار جسيمة على التطور الاجتماعى والاقتصادى فى البلاد وسعة المشاكل التى يصطدم بها المجتمع آنذاك بسبب فورة التضخم الناتجة عن استفحال حاجات هذا المجتمع لهذا يحاول المغرب أن يجد حلا للمشكلة الديموغرافية فى تعزيز التخطيط العائلى باتخاذ اجراءات تهدف الى استئصال البطالة ومعالجة قضية تزايد السكان ويرى المسؤولون ضرورة نهج سياسة سكانية مستعجلة ترتكز على الموقومات الثلاثة الآتية :

1) احداث وظائف فى المدن .

2) املاحات عمرانية فى الحواضر مع مكافحة مدن التصدير .

3) نهج سياسة تهجير موقتة .

وقد قام جلالة الملك الحسن الثانى بتقعيد القوام الاجتماعى والاقتصادى فى المغرب فى ميدان التصنيع والاصلاح الزراعى والتنمية الوطنية فشملت بادرات التحضير العمرانى القروى وبناء الاحياء السكنية الرخيصة ومحاربة مدن التصدير وتحقيق اللامركزية فى الاقاليم واقامة السدود وتوزيع الاراضى والتاميمات والتنقيبات المعدنية والبترولية وتطوير موارد الفوسفاط وتشييد المركبات الصناعية وتعميم التعليم ورفع مستوى حياة السكان وخاصة العامل الذى بدا يساهم فى أرباح الانتاج تلك عوامل بناءه يمكن أن تسهم ــ دون تصفية كاملة للمشكل ــ فى ايجاد الحلول له .

وفى هذه الحال سيسفر النقص فى نسبة الولادات عن مجرد اسهام فى ايجاد الحلول لمشاكل التغذية وتعميم التعليم والسكنى والتشغيل بالتخفيف من حدتها ، أما ما يتعلق بالتخطيط العائلى نفسه فان برنامج الحكومة يرمى الى اقامة جهاز تحريرى يترك للاسرة كل الصلاحية لاختيار عدد الاطفال الذين ترغب فى انجابهم اعتبارا لوسائلها وامكاناتها ومع ذلك فان مرافق مختصة فى تلقين وسائل المنع الاصطناعى للحمل ستؤسس وتجهز عددا ووسائل لمساعدة العائلات دون اى ضغط على اختيار ما يلائمها لهذا تم وضع برنامج اعلامى وتثقيفى للاتصال بالاسرة بواسطة فئات اسعافية اجتماعية تضم ستمائة رجل وامراة لشرح المظاهر المختلفة للتخطيط العائلى وكان يظهر ان بعض الناس اصبحوا يقبلون منذ عام 1969 على حقن تلقيح الرحم لمنع الحمل ولكن الاحصاء اوضح ان ثلاثة فى المائة فقط من النساء اللواتى بلغن سن الانجاب عن اللواتى يستعملن هذه الطرق الاصطناعية الحديثة باستثناء الحقن التى يقوم بها اطباء القطاع الخاص فهذه السياسة المدرجة فى التصميم الخماسى للدولة المغربية لم تطبق اذن الا جزئيا نظرا لقلة الوسائل الكافية فى جهاز الصحة

العمومية بالاضافة الى تقاعس السكان اهمالا او تشبثا بتقاليد الانسال الواسع ولهذا يحاول المغرب ان يتحاشى اتخاذ اى موقف صلب يتعارض مع «تقليديات» تكون احيانا خاطئة فهو يواصل بحوثه رغم كون اختياره قد وقع لحد الآن مبدئيا على سياسة تهدف الى منع الحمل دون اية مواجهة ولااصطدام فهو يسير بكامل الحيطة والحذر — على مايوح — دون اللجوء الى شعارات لافتة للانظار ولاجرح للعواطف لاسيما وان الكثير من الناس مازالوا يتأثرون تارة بحرفية النص الذى يستندون اليه وطورا بتعميمات متسارعة لهذا النص دون اعارة كبير اهتمام للعوامل الثقافية والاجتماعية او الاقتصادية فى المجتمع الاسلامى فاذا ماحاولنا تجزئة المشاكل وترتيبها حسب أسبقيتها وجب أن تهتم أولا باقامة جهاز فعال لحماية الامومة والطفولة كجزء لا يتجزأ من نظام وقائى عام على صعيد الصحة العمومية وفى هذه الحالة يكون التخطيط العائلى مفيدا مهما تكن نسبة الامية والمستوى الاجتماعى وتطور الامة الاقتصادى فهذا العنصر الاجتماعى يشكل توأما متراصا ومجموعة متماسكة لايمكن فصل أجزائها بعضها عن البعض فاذا ماوضعنا مشكلا من المشاكل فى مساره الحقيقى فان المقومات الجوهرية الاخرى مثل الوسط العائلى والمستوى الثقافى والصحى والوازع الاجتماعى والعامل الاقتصادى الحق — تتفاعل كلها فى معادلات انسانية متناسقة لهذا يستوجب كل تخطيط صالح تماسك المشاكل بتبسيط المعطيات وجعلها فى متناول العامة وتحقيق تجارب واضحة لسهولة الاقناع لان الوسط الصالح اجتماعيا وعقائديا — مهما يكن مستوى الامية قادرا على ادراك أدق الخلجات وارق الشيات لمسارات من المسارات ومنهجية من المنهجيات ، ونلاحظ من ناحية اخرى ان نزوع الرجل الافريقى بوجه عام الى الاكثار من النسل قد تولد منذ اعرق العصور تحت تأثير النظام القبلى الذى كانت قوته تزداد كلما ازداد عدد أفراد القبيلة (1) وعن هذا الاتجاه التقليدى المتبلور فى تقدير الكم والافتخار به نتج موقف الكثير من الافارقة الذى ترتبت عنه زيادة فى النسل مرتفعة جدا ولعل الحديث الشريف القائل : «تكاثروا تناسلوا فانى مباه بكم الامم يوم القيامة» يدخل فى هذا الاطار لاسيما وان عدد المسمين فى عهده عليه السلام لم يكن يتجاوز الف واربعين الفا فهذه الابعاد المثالية للعائلة التقليدية الخاضعة لنظام الابوة والتى تزيدها-تضخما لوازم تعدد الزوجات أو المتسرى — قد اتخذت مع التطور الاجتماعى والاقتصادى للامة مقاسات اقل من الماضى اذ أن نسبة الخصب اى الانسال تميل — خاصة فى الشمال الافريقى — الى الانخفاض من 7،5 أطفال لكل عائلة الى عدد يتراوح بين 3،5 و 5 أطفال ويرى كالدويل Caldwell (2) يرى ان نظام العائلة العديدة الافراد اى المنطلقة من خصب مرتفع يرتكز فى افريقيا على ثلاثة عناصر أساسية تلخص فى كون الاطفال يمثلون توأما اقتصاديا ويقومون بجزء من العمل الملقى على عاتق الاسرة ويساعدون الشيوخ والعجزة ويساهمون بعددهم الكبير فى دعم هيبة ونفوذ الآباء غير أن هذا الثالوث راجع فى الحقيقة الى انعدام اى جهاز للتعاون أو الاسعاف الاجتماعى تقيمه الدولة على الصعيد الوطنى فالمظهر الكلاسيكى لمدينة مغربية فى العصور الوسطى مثلا يبرز عدم اهمية مشاكل كان المواطن المسلم يجهلها فى ذلك العصر لانها كانت تستأصل تلقائيا بمواقف وتقاليد وعادات تعقمها وسنستعرض للذكرى معطيات تصور لنا مدى تأثير الجانب التاريخى فى الكشف عن خبايا الوسط الاسلامى المغربى ذلك ان المميزات الاجتماعية والاقتصادية — كما تتجلى فى هذا المسار الحضارى — كانت تشكل عاملا حاسما من شأنه ان يوجهنا فى وضع كل سياسة ديموغرافية فالى اى حد امكن للاخلاقية الاسلامية الفاضلة ان تقوم بدورها بكامل الفعالية فى مجتمع اتسم بطابع افريقى وتبلى مزدوج ادت به النزعة الانفصالية المتطرفة الى لا مركزية قوية ؟

ان مغرب القرن التاسع الهجرى ربما كان اكثر عمرانا منه اليوم (3) غير أن انعدام الاحصاءات بخصوص الجزائر أن عدد السكان المقاتلين الذى يمثل عدد المعطوبين .

---

1) تقول القاعدة المنسوبة الى كاريط Carette فى القبيلة يمثل ثلثها اذا اضفنا اليه ربعها

2) فى بحثه حول ابعاد مراقبة العائلة فى افريقيا — 1968 (ص 5)

3) كوتيى Gautier فى كتابه (عصور المغرب الغامضة) ص 405 .

الديموغرافية — حتى فى العهود الذى كانت الدولة منتظمة — يجعل كل عد وحسبان فى هذا الباب غامضا وبعيدا عن الواقع ففى اوربا نفسها بدأ الناس يتعرفون الى الاعداد السكانية عام 1850 فقط فى حين أن عمليات الاحصاء بفرنسا لم تستند الا منذ عام 1880 على بطاقات فردية وهو النظام الذى يتوفر على بعض الضمانات ولم يتردد بعض الرحالين الاجانب فى ربوع المغرب عن تقديم أرقام انطلاقا من تخمينات تقريبية فقد اكد الدكتور رينو (1) Reynaud أن عدد سكان المغرب كان يتراوح بين تسعة وعشرة ملايين بينما اوصله المؤرخ ليون كودار L. Godard (2) الى ثمانية ملايين (لا خمسة عشر كما قال جاكسون Jackson وغيره من الحوليين) وقد اكد كوستاف لوبون (3) Gustave Le Bon هذه الارقام بالاشارة الى ستة او سبعة ملايين نسمة سنة 1880 امـا المؤرخ موليراس (4) Moulières . فقد تحدث بالنسبة لعام 1895 عن اربعة وعشرين الى خمسة وعشرين مليون نسمة مع ذكر ما اجمع عليه الجغرافيون الغربيون من أن سكان المغرب كانوا يتراوحون بين خمسة الى ستة ملايين فقط وقد تنبأ موليراس بارتفاع هؤلاء السكان الى الضعف فى ظرف قرن واحد قائلا: «اذا ماانفلت هذا الاقليم المحظوظ طوال مائة عام من نهم الغزاة المغيرين فسيكون له اربعون مليونا من السكان فى نهاية القرن العشرين (5) غير أن موجات الاوبئة التى جرفت بمنطقه البحر الابيض المتوسط منذ القرن السابع عشر قد اثارت — على مايقال — فورة من الموتان اصابت العديد من السكان فباريز كانت — حسبما يحكى — مسرحا لخمسة اوبئة متتالية بين عام 1619 وسنة 1668 خلفت احداها نحو الاربعين الف ضحية »، الا ان هنرى طيراس لاحظ (6) ان السلام الموصول الذى عرفه المغرب كان من شأنه أن ينمى عدد السكان وقد ساعدت ثروة الموارد الطبيعية فى هذا البلد على الاكتفاء الذاتى بل أن المغرب لم يكن يتخلى عن امداد الدول المجاورة كتونس والبرتغال بالعون والمساعدة عندما كانت المجاعات تعيث فى جوانب البحر الابيض المتوسط .

فهذا الرفاه الموصول فى تاريخ المغرب كان دعامة اقتصادية للسياسة التى نهجها قادته فى ميدان النسل حيث لم يكن هنالك داع لاى تخطيط يحدد حركة الانجاب، ولم يهتم المغرب آنذاك بالفلاحة فقط بل عمل على دعم التصنيع . ولكن الاستعمار بدأ يحز فى هذا الكيان الاقتصادى العتيد.

وبذلك حقق المغرب فى نطاق روح التحرر الاسلامية التى هى روح انسانية اهدافه القومية فى دائرة احترام حرية الامم والشعوب الاخرى فاعترف للولايات المتحدة قبل الآخرين بالحرية والاستقلال فى الوقت الذى بقيت اوربا تتعثر حيرى ازاء هذا المولود الجديد وبرهن المغرب المسلم فى عهد المولى اسماعيل باعتراف مؤرخى المسيحية انفسهم — انه كان اكبر حام للفرنسيسكان الكاثوليك ، كما أن المغرب فتح ابوابه على مصاريعها لليهود الذين طردتهم اوربا وفى ضمنها انجلترا طوال عدة قرون ولكن يوم كان اليهود يهودا قبل أن ينحرف الكثير منهم نحو الصهيونية اللاانسانية ، نعم ظل المغرب العربى كنموذج لبقية اقطار العالم الاسلامى فى عهود الانصياع للاوامر — ظل فى خدمة الانسانية عامة والمواطنين خاصة فتواكبت لديه المقومات الحضارية وانمحت آثار الانحرافات فى الامة وابعادها الخلقية والاجتماعية ومقاساتها العددية والعددية ، وهكذا واصل تعزيزه للاقتصاد بتوزيع اعانات ضخمة على المزارعين بلغت — حسب تقدير صاحب «درة السلوك» — خمسمائة مليون دينار (7) كما وزع ابان الجذب كميات هائلة من الاغذية فى المدن والاعانات فى البادية ومنح قروضا للتجار لاستيراد المواد

---

1) فى كتابه « الصحة والطب فى المغرب » الجزائر 1902 (ص 5)
2) كتاب « وصف وتاريخ المغرب » — باريز 1860 (ص 8)
3) حضارة العرب — الطبعة الفرنسية ص 263
4) فى كتابه « المغرب المجهول » — جزآن 1895
5) موليراس ج 1 (ص 27) .
6) تاريخ المغرب جزآن — 1950 .
7) كانت قيمة الدينار تعادل اكثر من اربعة غرامات من الذهب

الضرورية وبيعها بأرخص الاثمان ، وبذلك سبق فى مناهجه الاسعافية الاجتماعية ما أصبحت الدول المعاصرة تقحمه فى تخطيطاتها وموازناتها ، وقد اتجه المولى محمد بن عبد الله أيضا الى ترصيص علاقته بالخارج لترجيح كفة ميزانه التجارى فصدر فائض انتاجه الذى بلغ عام 1845 نحو 75000 طن من القمح والخضراوات الجافة فى ميناء الصويرة وحده الذي تقبل عام 1911 اى قبيل فرض عقد الحماية 462 باخرة حيث صدر 38000 طن من المنتجات المغربية مقابل توريدات قدرت بـ 12000 طن ، ولم تكن الحركة الداخلية اقل ازدهارا ، اذ بلغ عدد رجال الحرف القومية التقليدية نصف مجموع سكان المدن (1) المغربية،كانوا يعملون ضمن اطار نقابى (نظام الحناطى) جد متحرر «لم يعتره زيف وفساد الا بعد احتكاكه بالمغرب (كما قال باليز) (2) وقد ساعد تنوع المواد الاولية ورخصها هذه الحرف على التنامى والازدهار حتى فى البوادى ولنضرب مثلا بصناعة ميكانيكية كانت تحول فى أرباض مدينة الجديدة منذ عام 1866 منتجات القطن التى كانت مشهورة بجودتها وشبهها بنوع «سى ـ ايسلاند» (Sea Island) ذى الخيوط الحريرية المستطيلة وهذا المستوى المعاشى هو الذى حذا المؤرخ إدوار دوتى (Edward Doutté) الى القول بعد رحلته الدراسية الى المغرب ـ بأنه حمل ارتسامة الاقتناع بأن سكان المغرب يعيشون حياة اقتصادية أكثر قوة وتنظيما من حياة جيرانهم سكان الجزائر» غير أن الاقتصاد المغربى أصبح ـ بعد تدخل الاستعمار ـ يهوى فى طريق الانهيار فأناخ الفقر بكلكله الثقيل ونبض معين بيت المال وتدخلت بعض الدول الغربية المتربصة لاستغلال ضعف المغرب المالى بسلوك دبلوماسية جديدة سماها اندرى جوليان «دبلوماسية عن طريق المالية» ارتهنت مقدرات البلاد الاقتصادية ومستقبله للسيطرة عليه سياسيا وبذلك اندرج المغرب فى مجال جديد أصبحت ايديولوجيات الغربيين تتحكم فيه وتكيف معطياته الحضارية وتوجهه نحو بوتقة مصطنعة بعيدة عن تقاليده فاصطدم بمشاكل جديدة اضطر أن يتخذ لها حلولا فى نطاق العقلية الجديدة غير أن هذا التيار الجديد لم يحل دون احتفاظ المغرب بنبذة من التقاليد العريقة التى دعمت أمجاده فى مختلف العصور فالمواطن المغربى كان دائما يتمتع باسعافات اجتماعية ضد العوامل الهدامة التى كانت تحز كيان المجتمع فى العصور الوسطى خاصة فى أوربا كالجوع والمرض والجهل والتعسف والاستبداد وكان المغرب يمتاز بنوع من الامن والتوازن الاجتماعى القار الا أن العنصر الهام هنا هو أن هذه الكفالة كانت شعبية لادخل فيها للدولة التى ظلت فى مندوحة عن تحمل عبئها فمرافق المجتمع كانت تتفاعل بشكل غريب تحت تأثير عوامل شتى اصبحت اشعتها فى حياتنا المعاصرة باهتة كامدة ونخص بالذكر منها الاوقاف الحبسية التى كانت تتكفل عمليا باسعاف الطبقات غير المحظوظة فى الامة وذلك باقامة الملاجىء ودور الضيافة فى طول البلاد وعرضها حيث يجد المواطن المعوز المأوى الصالح والقوت الكافى والمساعدة المادية الموفورة ، وكانت روح التضامن تزكى الجماعة فى مساعدتها للافراد فلم تكن الدولة تشعر بالحاجة للتدخل من أجل اقرار التوازن وخلق تكافؤ الفرص بين الجميع كما كانت الزكوات والاعشار تخلق نوعا من التسوية بين الطبقات وتسد الحاجة الملحة دون افتقار الغنى ولاتشجيع المساكين على الاخلاد للراحة لقوله عليه السلام «لان يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه» وكانت ذيول هذه الاسعافات والاوقاف ترخى سترها الفارعة على الفقر حيثما كان بالبلدان الاسلامية وخاصة فى اليمن والحجاز وبالاضافة الى هذا الجهاز الكفيل بدعم الامن الاجتماعى كانت الدولة تعمل على ضمان اقامة القضاء الصالح لحماية الحقوق والمصالح بحسن اختيار القضاة ومراقبتهم من مغريات الرشوة والزور والانحراف حيث عزل السلطان المولى سليمان كافة قضاة البادية لعدم أهليتهم ومنذ القرن السادس الهجرى وجه الخليفة الموحدى يعقوب المنصور منشورا الى القضاة لتذكيرهم بشروط الحفاظ على العدالة متوعدا كلا من الراشين والمرتشين الامر الذى خلق جوا حيا من عدالة القضاء عززت العدالة الاجتماعية مما حدا المؤرخين الغربيين الى الاشادة بمثالية القضاء قبل

---

1) ماسينيون فى كتابه « الحناطى الاسلامية» (اى جمعيات المحترفين) باريز 1925 ص 38
2) مجلة المغرب الطبى

الحماية والتنويه بالوازع الكابح المتمثل فى ضغط الجماهير التى كيفها التكوين الاسلامى الفاضل وتشريعه الانسانى. ومن مقومات هذا الجهاز الاجتماعى مراكز الاستشفاء (مارستانات ومستشفيات ومصحات) التى كانت تسهر على وقاية الصحة وحفظها نقصر الحديث على واحد منها وهو مستشفى المنصور الموحدى «بمراكش» ذلك المستشفى الذى جهز كأى مستشفى عصرى بالادوية والاطباء والممرضين ومختلف المرفهات بالمجان وقد وصفه المؤرخ ميى (Millet) (1) بانه يخجل فى هذا العصر (أى عام 1927) مستشفيات باريز وقد تحدث دوتى (Doutté) عن مقوم اجتماعى آخر هو الطهارة — كتدبير وقائى ضد المرض — فأبرز فعاليته بالمغرب الذى كان بذ فى هذا الحقل الكثير من الشعوب المتمدنة والواقع ان المستوى الثقافى لدى الشعب المغربى كان مرتفعا حتى بين الاميين الذين كانوا مسلحين للحياة اكثر من حملة الدبلوم فى أمم أخرى(2) وهذه العوامل متجمعة هى التى خلقت بيئة اجتماعية مثالية لم تترك للعامل الديموغرافى أى اثر فى مسار تطور الاقتصاد وهذا هو الذى يبرر ما أشار اليه (ليون الافريقى) فى كتابه «جغرافية افريقيا» من ان معدل العمر بلغ فى الحواضر المغربية 70 سنة وفى الجبل مائة ولكن معدل الوفيات بدأ يتصاعد مع تسرب الاستعمار (الايبيرى) اثر سقوط غرناطة أوائل القرن التاسع الهجرى ودخول ما كان يسمى فى المغرب بالمرض الافرنجى «وهو الزهرى » (3) ويتجه الاطباء المعاصرون الى نسبة جانب من الخلل الاجتماعى الملحوظ فى العالم الى هذا الوباء الفتاك الذى يرفع معدل الوفيات ويبلبل المسار الديموغرافى والاجتماعى الاقتصادى فى المغرب . ويرجع الفضل فى جماع هذه المعطيات الايجابية الى الاسلام الذى يحوط المرأة الحصان بسياج من العفاف قبل الزواج كما يستنكر الانجاب غير المشروع بسد الباب فى وجه الاستلحاق ويحظر بشدة وَأْد الطفل او الجنين مهما تكن الاسباب كل تلك العوامل تحول دون الانسال الاعمى غير المتبصر وليس فى نصوص الاسلام ما يجيز عملية الجرف الطبى Curetage وهو كحت وتنظيف الرحم بعد تكون الجنين خلال ثلاثة الاشهر الاولى للحمل فاذا كان الحديث الشريف يشير الى أطوار الجنين من حالة النطفة ثم المضغة ثم العلقة ثم نفخ الروح حيث تستمر كل حالة اربعين يوما فان الجنين يتكون ولو بدون روح قبل نهاية هذه المدة لا يسمح الاسلام بالجرف الا فى حالة الخطر الشديد على الأم ولكن روح الانجراف التى تفشت فى العصر الحاضر والتى أصبحت تتسامح اكثر فاكثر فى العلاقات الجنسية غير المشروعة والاجهاضات السرية — افقدت المجتمع توازنه حيث ابعدت الدواليب الاجتماعية عن محورها الطبيعى ، واذا ما رجعنا الى النصوص الاسلامية الصحيحة لاحظنا ان العزل الهادف الى منع الحمل لم يكن محظورا فى صدر الاسلام فقد روى البخارى ومسلم والنسائى والترمذى وابن ماجه ومالك فى الموطأ عن ابى سعيد : «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة بنى المصطلق فأصبنا سبيا من سبى العرب فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزوبة واحببنا العزل فأردنا ان نعزل وقلنا نعزل ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين اظهرنا قبل ان نساله فسالناه فقال ما عليكم ان تفعلوا مامن نسمة كائنة الى يوم القيامة الا وهى كائنة » وفى رواية ان رجلا قال : يارسول الله ان لى جارية وانا اعزل عنها وانا اكره ان تحمل وان اليهود تحدث ان العزل المؤودة الصغرى قال كذبت يهود لو اراد الله ان يخلقه ما استطعت ان تصرفه » الا ان تطبيق ذلك يستلزم اتفاق الزوجين دون ضغط خارجى باصدار قانون ملزم فقد روى القزوينى كما فى مجمع الزوائد لمحمد بن محمد بن سليمان الرودانى السوسى المغربى عن عمر رضى الله عنه ان الرسول عليه السلام نهى ان يعزل عن الحرة الا باذنها ذلك أن المجتمع الذى لاتضطلع فيه المراة بدورها المشروع هو مجتمع حائد عن روح الاسلام فللمراة الحق الكامل الذى تنفرد به وحدها احيانا فى الحياة الزوجية وخاصة الأمومة كما لها حقوق تضمنها الشريعة لاتقل عن حقوق الرجال لان معظم المفسرين والائمة يؤكدون ان الآيات القرآنية المتعلقة بحقوق الرجال وواجباتهم شاملة للنساء ايضا اللهم الا اذا ورد

---

1) فى كتابه «الموحدون les Almohades »المطبوع عام 1927
2) Propos d'un vieux marocain
3) حسب ليون الافريقى الذى كان يعيش فى القرن العاشر الهجرى اى السادس عشر الميلادى

نص صحيح مخصص وبذلك يتأكد مبدأ المساواة بين الجنسين فى ظلال القرآن عدا ماتستلزمه طبيعة المراة ومقتضيات الحشمة والعفاف أو المتطلبات الاسروية. وهكذا فان كل تسامح فى مجال «منع الحمل» لايمكن أن ينقلب الى نظام اجتماعى قانونى معمم دون اعتبار لوازم البيئة ومختلف العوامل الاخرى ومن بينها العامل الاقتصادى والاجتماعى اذ أن كل تخطيط مهما يكن نوعه يظل عديم الجدوى فى وسط غير مهذب لا يرتفع الى مستوى مسئولياته الاسروية والقومية ثم أن مستوى المواطن فكريا واخلاقيا يتسم بطابع الاولوية كعامل اجتماعى ويرتبط المواطنون فى وسط اسلامى صحيح بوثاق من التضامن والتكافل يبذ فى نظر الشارع كل مقومات العبادة لان الدين المعاملة فلا نطيل بتسراد النصوص التى تكيف المدينة الاسلامية الفاضلة وتطبع روح المواطن المسلم بخلقية متسامية تعززه بدرع من المناعة ضد مستوجبات الحياة المعاصرة فى اطارها الحضارى المصطنع .

مدخل إلى اللغويات التطبيقية

الفصل الثانى
وظائف اللغة

تأليف : س. بيت كوردر
ترجمة الأستاذ جمال صبري

اللغة كاحدى وسائل التخاطب :

بعد المناقشة العامة حول اساليب النظر الى اللغة ، تلك المناقشة التى جرت فى الفصل السابق قد يظن من المدهش أن أحدا جرؤ وحاول وضع تعريف لاى شيىء جد معقد ، ورغما عن ذلك كانت هناك محاولات لا حصر لها فى هذا الصدد ، غير ان أيا من تلك المحاولات لم يتسم بالاقناع والشمول التامين ، ولكن معظمها ، بسبيل أو بآخر ، يحاول أن يدخل على التعريف بيانا ما حول « وظيفة » اللغة ، وتتخذ تلك البيانات عادة صيغة من العبارات مثل : «بواسطتها يتخاطب الانسان » ، و « نظام للتخاطب » ، و « لاغراض التخاطب » ، هذا ، وفى الفصل السابق اعتبرت فكرة اللغة كوسيلة للتخاطب على انها احدى وجهات النظر الاجتماعية ازاء اللغة ، حيث ان تلك الفكرة انطوت على الاهتمام بالمتحدث ، والمستمع، وكذلك على كثير من مقومات موقف الحديث ، وهنا سأمضى قدما فى أمر وظيفة التخاطب اللغوى ، علينا بادئ ذى بدء ، أن نمايز بين التخاطب المقصود والتخاطب غير المقصود : اذا رأينا صديقا يسير على طول الطريق فقد نتمكن ، دون ملاحظته لنا ، والى حد كبير نسبيا الخروج باستنتاجات حوله وحول حالته الذهنية او الصحية ، وعن الجهة التى يقصدها ولماذا كل ذلك من طريقة مشيته فحسب ، وفى هذا المعنى فان مشيته « تخبرنا بشيء ما ، الا انه لن يخطر ببال احد انه يمشى بتلك الكيفية « بغية » التخاطب معنا على الرغم من أن ذلك قد يحدث احيانا ، مثل قولنا عن امراة ما : « لقد اندفعت خارج الغرفة واغلقت الباب بعنف » . هذا ، وسلوكنا جميعه تخاطبى ، الى حد ما ، بمعنى أن المستقبل يعلم شيئا لم يكن يعرفه من قبل ، حتى ولو لم تكن لدى « المرسل » نية معينة لاخباره بأى شيء ، واخذا برأى مرشال 1970 Marshal (1) فانه من المجد أن نعد تلك السمة السلوكية سمة « اخبارية » ، محتفظين بالمصطلح « تخاطبى » لوصف السلوك الذى يلجأ المرء اليه بقصد الاخبار ، ومن ثم فالمشى أو غيره من الانشطة قد يحمل ، بطريقة عارضة ، معلومات لاحد الملاحظين الخارجيين ، وقد يتضمن هذا أيضا نشاطنا الصوتى اذ مثلما نتمكن من التعرف على شيء ما عن شخص معين من مشيته ، فانه بامكاننا كذلك استنتاج أمور معينة عن شخص ما من صوته ، فأولا لكل امرىء شيء معين يتفرد به من حيث صوته أو طريقة تحدثه ، حقا ، يمكن ، الى حدما ، تغيير خاصية الصوت ، أو نبرته عن عمد ، كما يمكن لشخص ما اتخاذ مميزات صوت شخص آخر ، وتلك مهارة المحاكين ، وفى مثل هذه الحالات تستخدم المميزات « الدليلية » كما سماها ابركرومبى 1967 Abercrombie (2) للتخاطب المقصود اى للتضليل ، وبالمثل يمكننا التعرف على الوقت الذى يكون فيه شخص ما غاضبا أو مستشارا او متعبا من « جرس » صوته ، كما نعرف ذلك من كيفية مشيته ، او من مظاهر اخرى عديدة فى سلوكه ، ومن ثم فسلوكنا جميعه اخبارى ، بصفة اساسية ، ويمكن استخدامه كذلك للتخاطب .

ومع ذلك فهذا لا يعنى انه يمكن « للمستقبل » دائما أن « يقرأ الاشارات » ، اذ لكى نخبر بشيء او يتم التخطب معنا ، من الواضح بحاجة الى قدر معين من المعلومات العامة أو الخاصة ، وقد يكون من بين تلك المعلومات معرفة بتقاليد معينة ، فالتمييز بين التخاطب المقصود والتخاطب غير المقصود انما يكمن فى راس « المرسل » ، أما التمييز بين كون المرء مبلغا أو غير مبلغ أو مخاطبا أو غير مخاطب فيكمن فى راس « المستقبل » .

أما التمييز الثانى الذى يجب علينا معالجته فهو بين التخاطب اللغوى والتخاطب غير اللغوى ، عندما

(1) Marshall, J-C. (1970), « The biology of communication in man and animals » in J. Lyons (ed). New Horizons in Linguistics. », Penguin.
(2) Abercrombie, D. (1963), « Conversation and Spoken Prose », English Language Teaching, Vol. 18, no. 1, pp. 10-16, reprinted in D. Abercrombie, Studies in Phonetics and Linguistics OUP, 1965.

الوح الى شخص ما بيدى لاجذب انتباهه ، فانما اخاطبه بطريقة عمدية ، وانا افعل ذلك كجزء من خطة عمل مدروسة ، كمقدمة ، مثلا ، لاخباره بشيء ما او استعارة شيء منه ، هذا ويجب ان تكون ايمائتى واضحة نفسرها على انها « نذاء » لا على انها مجرد « تحية » او « وداع » او « تخذير » ، وبمعنى آخر عليه أن يفهم الايماءة حتى يكون التخاطب معه ناجحا وتعد كيفية تفسير تلويحة او ايماءة ، فى اى مجتمع ، مسالة تقليد سلوكى مشترك بين «المرسل والمستقبل»

والسلوك التخاطبى مسالة تقليد اساسا ، ومع ذلك فالتلويحة لا تعد جزءا من التخاطب اللغوى ، فاذا ناديت « هيا ، يا بيل ، احضر هنا لحظة » ، فان نوايای تكون نفس النوايا ، الا ان تخاطبى هذه المرة سيؤخذ ، بصفة عامة ، على انه تخاطب لغوى ومن ناحية اخرى ، اذا صحت بالفاظ رديئة النطق ، قد يبدو من الصعب الحكم على ما اذا كان ذلك، حقا، تخاطب لغوى او غير لغوى ، اذ من الصعب وضع حد فاصل بين النوعين ، ويتوقف وضع ذلك الحد تماما على العالم اللغوى : وعلى الظواهر التى يجب على نظرياته أن تفسرها . والواضح تماما هو أن الامر لايقتصر على ما اذا كنا نستخدم او لا نستخدم أعضاء الكلام فى التخاطب ، فقبل كل شيء علينا استخدام السعال او الصياح او التثاؤب او الانين ومجموعة كبيرة من « الاشارات الصوتية » كتصرفات تخاطبية مقصودة ، يعدها نفر قليل « لغوية » ، وبالطبع ، يمكننا التخاطب لغويا عبر قناة البصر ، وعن طريق الكتابة ، وهذا لا ينطوى على استخدام الاعضاء الصوتية .

والفاصل بين التخاطب اللغوى والتخاطب غير اللغوى ليس محكما ثابتا ، اذ انه بتوقف ، بصفة اساسية ، على القرارات النظرية للعالم اللغوى ازاء ما يدخل فى مجال دراسة ، فيقوم علماء لغويون مختلفون بوضع الفاصل بين التخاطب اللغوى والتخاطب غير اللغوى فى اماكن مختلفة ، الا ان معظم العلماء اللغويين يتفقون ان الخاصية الرئيسية للسلوك اللغوى تكمن فى انه يتالف من عدد كبير متناه من الاشارات التحكمية الا انها تقليدية والتى قد تتحد بطرق معقدة مختلفة لابراز تباينات المعنى : من حيث ان السلوك اللغوى لفظى اساسا ، ومن ناحية اخرى ، فالتمييز بين السلوك الصوتى والسلوك غير الصوتى سواء كان ذلك السلوك تخاطبيا او اخباريا ، لهو مسالة استخدام اعضاء الصوت او عدم استخدامها، فحقيقة ارتباط التخاطب اللغوى اساسا بالسلوك الصوتى فى عقول الافراد هو ، الى حدما ، « حادث تاريخى » ، غالبا ما يسمى « اولية الحديث » وبهذا نعنى ان السلوك التخاطبى ينشا بصورة طبيعية أولا على هيئة صوت ، ويظهر ذلك فى تطور الفرد وفى تطور المجتمعات البشرية معا .

ومن ثم علينا ان نمايز بين السلوك سواء كان صوتيا أو غير صوتى ، وبين السلوك الاخبارى اساسا والسلوك التخاطبى قصدا ، كذلك يمكننا ايجاد فروق عدة بين السلوك التخاطبى (سواء كان لغويا او غير لغوى)وفقا لما يجرى نقله (تبليغه)، هذا، وسنتناول الموضوع بتفصيل اكبر فيما بعد فى سياق السلوك اللغوى على وجه التحديد ، بيد انه من المفيد فى هذا المقام ان نمايز بصفة مبدئية بين المهام الموقفية ، والمهام الادراكية ، للسلوك اللغوى (ليونز 1972 ، Lyons (3) وتكمن المهمة الموقفية للسلوك اللغوى فى استخدام هذا السلوك فى التعبير عن حالتنا الذهنية وعن عواطفنا ، ولايجاد «صلة» بيننا وبين مستمعينا، ولتاكيد مشاعر التكافل والثقة والود تجاههم ، اما الوظيفة الادراكية للتخاطب فتكمن فى التعبير عن ادراكاتنا الحسية ، وتخيلاتنا ، وارائنا فى « واقع الامور » ، واذا ما حللنا السلوك الاشارى للحيوان، بهذه الكيفية ، فان ذلك السلوك يتضمن ، على وجه الحصر ، المهمة الاولى ، فمن الظاهر ان الحيوانات تتفاعل مع المواقف بحيث يمكن للمراقب العلمى البشرى من حيث المبدا ، ومن حيث معرفة بالموقف الاجمالى، ان يتنبأ بأى اشارات صوتية أو غير صوتية سوف تظهر ، وبتاثير تلك الاشارات على الحيوانات من نفس النوع ، أو من نوع آخر ، وبمعنى آخر ، نحن نصنف سلوكا حيوانيا معينا على انه تعبير على الخوف، او

(3) Lyons, J. (1972), « Human Language », in R. A. Hinde, (ed) Non-Verbal Communication, The Royal Society and Cambridge University Press.

الصداقة ، أو العدوان ، ، ، وهلم جـرا ، لان ردود الفعل ازاء هذا السلوك من قبل الحيوانات الاخـرى تكون هروبا ، أو اقترابا ، أو استعدادا للقتال ...الخ ونحن نقرن سلـوك الخوف بالاستجابة بالهروب ، ثم نمضى فى القـول ان الحيوان « ينبه » غيره من الحيوانات الى الخطر ، فاذا اخترنا تسمية تلك العملية « تخاطب » ، كما يحدث غالبا ، فليس من حقـنا أن نفترض أنه تخاطب « قصدى » بالمعنى الذى استخدمته فيما يتصل بالسلوك البشرى ، اذ أن القصد ينطوى بالضرورة على الاختيار ، وتستثنى مجموعة اشارات الحيوان فكرة الاختيار هذه ، ولكى يكون لدينا ما يبرر غزونا التخاطباللغـوى الى حيوان معيـن ، علينـا ايضاح أن ذلك الحيوان « ادرك» ان سلوكه تأثيرات معينة ، وانه استخدم تلك الاشارات لابراز التأثير ، ويتمثل أوضح دليل على هذا السلوك القصدى لو امكن جعل الحيوان يظهر اشارة الخوف او السرور بطريقة غير ملائمة ، أى يجعله يعطى معلـومات مضللة ، الا انه ليس ثمة دلالة واضحة على حدوث ذلك الامر (مارشـال 1970 ، Marshal (4) صفحـة 235 — 236) (3) .

واذا عدنا الان الى الوظيفة الادراكية للسلوك اللغوى ، يتضح لنا أن مجموعة اشارات الحيوان ، سواء كانت مقصودة أم غير مقصودة ، ليس لها وظيفة ادراكية ، وبالمثل قد يكون للسلوك التخاطبى للانسان سواء كان ذلك السلوك لغويا أو غير لغوى ، وظيفة موقفية ، الا ان السلوك اللغـوى وحده هـو الذى يختص بوظيفة ادراكية ، فنحن قد ننقل الخوف ، او مشاعر الود ، أو السرور بصورة لغوية ، او بصورة غير لغوية ، الا انه لا يمكننا تأكيد ان شيئا معينا يتسم بالخطورة أو السرور بغير طريق اللغـة .

التخاطب والمعنى :

سبق لى القول بانه يمكننا التخاطب القصدى بوسائل اخرى غير الوسائـل اللغـوية ، فاختيارنا للوضعة او الايماءة او نبـرة الصوت أو تغيير الوجه . أو طريقة مشيتنا أو ملبسنا او اكلنا ، يمكن استخدام كل ذلك فى اخبار الناس بشىء معين ، ولكن اذا اردنا بلوغ النجاح فيجب على « المستقبلين » معرفة مجموعة القواعد المرعية التى نتبعها ، هذا ويمكن الى حد كبير تحديد المشية « المتعبة » من ناحية وظائف الاعضاء غير انه يمكن محاكاتها ، فثمة طريقة « مقبـولـة » للمشى تنم عـن « التعب » . ويقوم قدر كبير من التمثيل غير الجيد على مثل هذا النوع من القواعد المرعية من قبيل : امداد المرء يده فى شعره وكبت التثاؤب والقعقعة وربما كان كل سلوكنا يتسم بأحد عناصر العـادات التقليدية ذلك لانه انما يكتب فى المجتمع ولهذا السبب بالذات فان الهيئة التى يتخذها ذلك السلوك تصبـح مميزة للمجموعة الاجتماعية التى يكتب فيها ولمذيد من الامثلة انظر لابار 1972 — La Barre (5) وهذا جزء مما نعنيه بالثقافة ، فنحن نتخاطب تخاطبا عمديا حين نستخدم سلوكنا عن عمد فى حدود نطاق مسموح بـه ووفقا لمجموعة من قـواعد السلوك المـرعية حتى نستخدمها فى التخاطب وهذا يصدق بكل وضوح على اللغة كما انه يصدق على غيرها من اساليب السلوك

هذا وغالبا ما يطلق اسم شبه لغوى على اى استخدام عمدى للسلوك الجدى فى اغراض التخاطب وفى حدود القواعد المرعية ، ومن قبيل ذلك الايماءة والوضعة وتعبير الوجه ودرجة السرعة ودرجة الصوت ونوعية الحديث وثمة ميل قوى لان يصاحب السلوك شبه اللغوى السلوك اللغوى كنوع من الطباق وهما يختلطان مثلهما فى ذلك مثل الالحان التى تختلط فـى عملية مزج الالحان ويتمثل ذلك عندما نومىء اتجـاه شىء معين بدلا من استخدام تعبيـر لفظى : « فقط » اعطنى ذلك ، ، ، (ايماءة) أو كما يحدث كثيرا فى المحلات والمكاتب : « واسمك . . . ؟ » مصحوبا برفع الحاجبين أو بامالـة الراس .

ويصعب التنبؤ تماما بالقدر القليل من السلوك

---

(4) Marshall, J.C. (1970). « The biology of communication in man and animals » in J. Lyons (ed). New Horizons in Linguistics. », Penguin.

(5) La Barre, W. (1972) « The cultural basis of emotions and gestures », J. Person, no. 16 pp. 49-68 ; reprinted in J. Laver and S. Hutcheson (eds). Communication in Face-to-Face Interaction, Penguin.

اللغوى او غير اللغوى للانسان اذ لو كان التنبؤ امرا ممكنا فانه من الصعب اخبار الملاحظ باى شىء لم يعرفه مسبقا ومن ثم فهذا ليس من قبيل الاخبار ، فلو كان لكل فرد نفس نوعية (الصوت) او كان كل فرد يرتدى ملابسه بطريقة واحدة فان السيمات السلوكية هذه لن تنم عن اية معلومات ومن المحتمل كذلك الا تكون لهذه السمات الفاظ فى لغتنا ، ولكانت تظل سمات عالمية تابتة يجب قبولها كامر مسلم به مثل كون للمرء انفا فهى مسالة لا اختيار لنا حيالها ، ولكن اذا كان لنا الخيار ، فثمة احتمال لاستخدامها فى التخاطب ، وينطوى الاختيار بداهة على حد معين من البدائل التى يجليها الحدس نوع معين من النظام التقليدى ينطوى على المعنى .

ما يتم نقله ؟ :

تميل التقارير اللغوية على نحو نموذجى الى النص على ان وظيفة اللغة هى نقل « الفكر » غير اننا اذا فسرنا كلمة « فكر » بطريقة تحريرية بحيث يتضمن المعتقد والآراء والاحكام والادراكات فان ذلك يعد تقريرا محدودا للغاية ، ويمكننا قياس ذلك بوضع عبارة « اعتقد » فى صدارة تعبيرات قليلة ونتاكد اذا كانت مفهومة او من الافضل التاكد من ان الاضافة لا تحدث تغييرا هاما فى المعنى اننا اذا نقلنا ذلك فسنجد مجموعة كاملة من التعبيرات التى تتاثر قليلا بتلك الاضافة ومجموعة اخرى تخضع لتغيير هام فى المعنى :

لقد ارتكبت الحكومة خطأ آخر
يجب أن تزور طبيبا
ستعود ربيكا غدا
هذه بلوزة جميلة

تبدو هذه الجمل قليلة التغير نسبيا فى معناها باضافة « اعتقد » قبلها ، ولكن ماذا يكون الحال بالنسبة للجمل الاتية :

يابت ، لايمكنك اجابة هذا السؤال
يا بيل يا محنك !

هل يمكنك ان تدلنى على الطريق الى الاوديون ؟
بالطبع ، يسرنى ذلك
ستتلقى اجابتى غدا

وتاتى المغالاة فى تقدير وظيفة اللغة كاداة لنقل التعبير عن الافكار من حقيقة أن المهتمين باللغة من الناحية التاريخية كانوا الفلاسفة وعلماء المنطق اذ كانوا يشتغلون بالناحية الافتراضية للغة من حيث قيمتها وحقيقتها ، وكانوا يميلون الى تركيز اهتمامهم على انواع الجمل التى يمكن تحليلها بصفتها معبرة عن الافتراضات الحقيقية او الكاذبة الا أن من العسير التاكد من صدق أو كذب التعبير عن الرغبات والبهجة والالم والرضا او عن المسائل والاوامر الا بالقدر الذى نفترض به شيئا حقيقيا أو كاذبا . ونحن لايمكننا القول بأن جملة « امرر الملح » حقيقية أو كاذبة فى حد ذاتها وكل ما يمكننا قوله أن الادراكات أو الافتراضات الخاصة بالموقف الذى تنطق فيه تلك الجملة قد يكون كاذبا حقا اى ربما لا يكون هناك ملح وبالمثل فسؤال من قبيل « كم عدد ارجل الاصلة العاصرة ؟ » لا يتسم بالحقيقة أو الكذب وانما الكاذب فى الامر هو الافتراض الضمنى من ان الاصلة العاصرة ليس لها أية أرجل على الاطلاق .

و فى حين تستخدم اللغة للتعبير عن افكارنا ، فتلك ليست وظيفتها الوحيدة اذ قد يكون من الصحيح ان معظم الجمل تحتوى على عنصر أو عناصر معينة تفترض او تؤكد عقائد أو ادراكات معينة عن موقفنا الحالى أو موقف العالم بصفة عامة الا ان ذلك لا يمكن ان يمائل باى حال قولنا أن وظيفة اللغة هى التعبير عن افكارنا .

اذا فاول شىء علينا مواجهته هو اننا نستطيع القول بماهية وظيفة نبذة من اللغة اذا اخذناها بمعزل عن سياق الكلام والموقف الذى استخدمت فيه ، فقد تنطق نفس مجموعة الكلمات فى مناسبات مختلفة بنوايا وتاثيرات مختلفة ، وببساطة لا يكفى تسجيل الكلمات التى تنطق ، بل علينا أن نتساءل عن سبب النطق بها ، ويمكننا تنفيذ ذلك بنجاح فحسب كما شاهدنا اذا كان لدينا قدر كبير من المعلومات عن المتحدث والمستمع والموقف ، ذلك انه عندما ذكر نقلا عن احد المسؤولين فى جريدة قوله انه تجب « معاملة » النهر المحلى « كبالوعة مفتوحة » ، لاحظ الصحفى الذى نقل الحديث انه كان يفترض أن يكون ذلك بمثابة « تحذير » وليس « كدعوة » ، وما زلت لا استطيع تقدير ما اذا كانت اللافتة التى تقول « عبور المشاة » تعنى «تعليمات» للمشاة ام « تحذيرا » لسائقى السيارات فوراء اى

تقرير ـــ قد يبدو محايدا او بريئا ظاهريا ـــ للحقيقة قد تكمن نية اخرى وهذا احد مشاكل التحدث عن الوظائف التخاطبية للغة ، فنحن لا نستطيع تصنيف المنطوقات بدقة وفقا لصيغتها النحوية اى وفقا لصيغة الامر ولاستفهام الخبر . . وهلم جرا ، ثم نقول ان لكل صيغة وظيفة واحدة فحسب على العكس من ذلك علينا القول انه قد يكون لاى منطوق عدة وظائف فى آن واحد وانه ليس ثمة علاقة عامة بين صيغة منطوق ووظيفته بالرغم من وجود علاقة احصائية (احتمالية) مثلا بين الجملة الاستفهامية ووظيفة توجيه سؤال ما .

قمت فى القسم السابق بالتمييز بين الوظيفة الموقفية والوظيفة الادراكية للحديث فيما يتعلق بالتمييز بين السلوك اللغوى والسلوك غير اللغوى ونتعلق الوظيفة الادراكية بوضوح بما اسميته هنا بعنصر المنطوق الذى يعبر عن عقائدنا ، او ادراكاتنا او تصوراتنا لموقف ما ، او لموقف العالم بصفة عامة ويمكن الحكم على هذا الجزء من المنطوق (اذا كان له مثل هذه المكونه ، ويشير الى وقت ومكان معينين) ، بانه حقيقى أو كاذب حقا ، ولهذا السبب فهو يسمى احيانا بالعنصر الافتراضى او الضمنى فى المنطوق (انظر سيرل 1969 (Searle (6) وبالطبع قد يكون فى نيتنا التضليل اى ان نقدم شيئا عكس الطريقة التى نرى بها الامور حقا او نعتقد انها كذلك على انه راينا ، أو ادراكنا ـــ الا ان هذا لا يعنى ان ذلك الجزء من المنطوق غير ادراكى ، فالوظيفة الموقفية عبارة عن مركب من الوظائف العديدة المتصلة احداها بالاخرى. فتعبيرات السرور والالم والخوف والرغبة وهلمجرا ليست تعبيرات عن كيفية رؤيتنا للامور او عما نعتقده فى وضعية الامور ، انما هى ردود فعلنا الشخصية ازاء وضعية الامور ، سواء كان ذلك طوعا أم قسرا، فمنطوق « ربيكا ستاتى غدا » قد يكون خبرا محايدا مثيرا للعاطفة لما نعتقده صوابا اما اذا قلنا «انه لمن الخير أن تاتى ربيكا غدا » او « آمل أن تاتى ربيكا غدا » فاننا نضيف تعبيرا لموقفنا العاطفى لوضعية الامور كما نراها ، وبالمثل قد ننوى التضليل بالطبع . او اذا قلنا «ربيكا قد تاتى غدا» او «ربيكا لن تستطيع الحضور غدا » فاننا نضيف تقديرنا لاحتمال وضعية الامور ، وقد يحتوى هذا المنطوق على مضمون عاطفى (ويتوقف ذلك على علاقتنا بربيكا) ولكنه ، اساسا تعبير عن درجة الثقة المتوفرة لدينا شخصيا فى صدق ادراكنا لوضعية الامور ، ومرة ثانية قد تكون بنانية الى التضليل . وغالبا ما يقال للاحكام الخاصة باحتمال او ترجح او امكانية او تاكيد العنصر الفرضى للتعبير ، العنصر النموذجى للمنطوق ، وقد نقول « ربيكا ، فلتحضرى الى المنزل غدا ! » ، من الواضح اننا هنا نعبر عن رغبة فى وضعية معينة للامور ، وبقدرما تعبر تلك المنطوقات المختلفة عن عاطفة او ثقة او رغبة فى وضعية معينة للامور ، بقدرما تتضمن جميعها عنصرا يخبر المستمع بشىء معين عن المتحدث ، فجميعها تنطوى على عنصر فرضى فيها ، والآن ،يمكننا ان نتساءل : هل يمكن وجود منطوقات ذات وظيفة موقفية فحسب ، اى منطوقات ينقصها العنصر الفرضى او الادراكى ؟ وما العنصر الفرضى فى « مرحبا ! » او « الى اللقاء ! » او « كيف حالك ؟ » . يصعب القول بان تلك المنطوقات تعبر عن ادراك لوضعية الامور ، بالرغم من ان نطقها قد يفترض وجود مثل هذا الادراك واذا نظرنا الى مثل تلك المنطوقات ، نجد انه يمكن التنبؤ بحدوثها تماما ، وان بنيتها صيغية ، ولهذا السبب فهى تشبه ، الى حد كبير ، فى طبيعتها النداءات التى توجه الى الحيوانات ، ولذلك اطلق عليها بعض الناس مسمى سلوك « شبه لغوى » ، فمن الواضح ان وظيفتها موقفية ، بالرغم من انها قد لا تحدث اكثر من ايجاد شعور بالتضامن او علاقات الود بين المتحدث والمستمع ، الا ان الغالبية العظمى من المنطوقات ليست من هذا النوع الصيغى ، وتحتوى فعلا على عنصر افتراضى ، وربما كان ذلك هو السبب فى ان العرف جرى على اعتبار « نقل الافكار » كوظيفة اولى او وحيدة للغة .

اداء الحديث :

تنطوى معظم المنطوقات على عنصر ادراكى ، غير ان هذا لا يعنى ان وظيفة اللغة هى ، ببساطة ، التعبير عن ذلك العنصر ، فكل ما للغة هو عنصر موقفى يرتبط بنوايا المتحدث ، وعن طريقه ينقل شيئا معينا عن حالته الذهنية ، ونشاطه ، وعن سبب تحدثه

(6) Searle, J.R. (1969) « Speech Acts,,Cambridge University Press ».